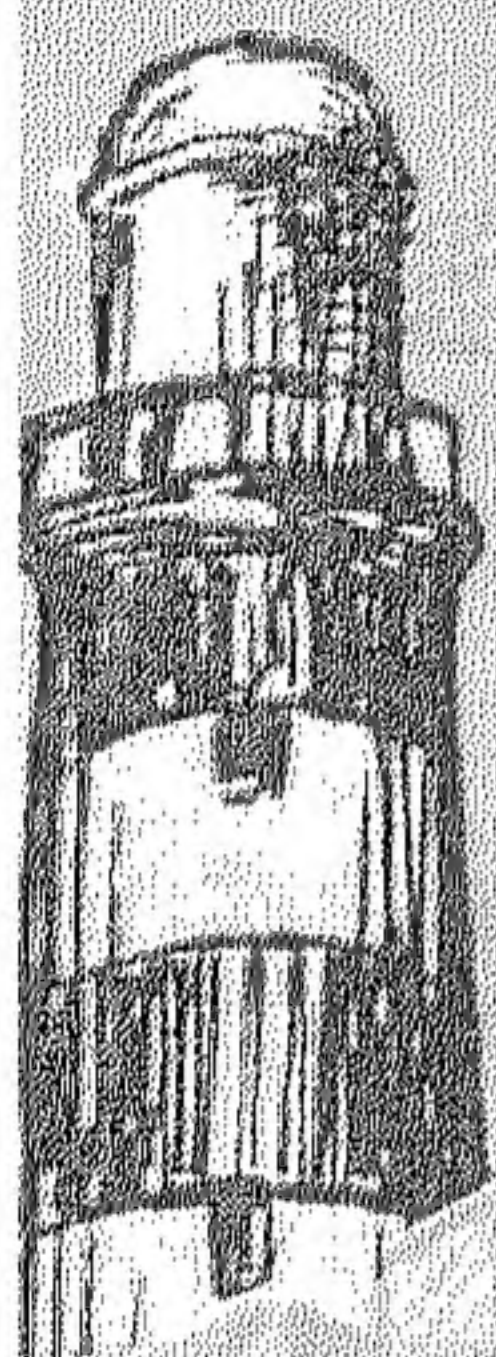


مُعَارِكَةُ الإسكندرية



بقلم
صديق شيبوب



0163613

Bibliotheca Alexandrina

اهداءات ٢٠٠٠

المهندس/ راحميس اللقاني

الإسكندرية

معارك الإسلام الكندية

بمقلم
صديق شيبوب

طبعة أولى

مكتبة الطبع والنشر :
الوكالة العامة العربية للدعاية والنشر
٧١ شارع أبو المرداد تكيفه ٣٦٤١٢ بكندية



الرئيس جمال عبد الناصر
رئيس الجمهورية العربية المتحدة

مقدمة

عندما يصل هذا الكتاب الى أيدي القراء تكون الجمهورية العربية المتحدة من أقصاها الى أقصاها قد شرعت تقيم الاحتفالات الفخمة لمرور عشر سنين على الثورة، فيذكر المصريون بالخير والشكر والاعتراف بالجميل كيف حازمت تلك الصفوة من الضباط من أبناء الشعب أمرها. وكيف حرصوا جميعاً على كتمان السر حتى يتم لهم الفوز ، وكيف تقاموا في ساعة الصفر - أى بعد منتصف ليل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ يقليل - بأعظم انقلاب شهدته مصر في تاريخها الحديث دون أراقة نقطة دم واحدة .

كانوا صفوة من الضباط الاحرار من أصحاب الرأي الثاقب، والعزيمة القوية ، والإيمان بوطنهم ويعدالة المهمة التي انتدبوا أنفسهم للقيام بها وينفعها للبلاد وبالخير الذي سيعملها بعدها .

كانوا من أبناء الشعب يشعرون بما يلحقه من ظلم وحيف سواء من الطغاة المستبدين بالحكم أو من الأحزاب المتناحرة في سبيل الوصول إليه . وكانوا ينطبعون بانطباعات أخوانهم فيتألمون لآلامهم ويتجاوبون معهم في الضراء المحيطة بهم .

أجل ، لقد كانت جذور الثورة بعيدة وعميقة ، انها تعود الى ذلك الحيف الذي كان يصيب الكتلة الكادحة منذ زمن بعيد، والى الانتفاضات

السابقة ضد الجور والاستعمار وعملائه المروجين له ، وإلى الثأر لدماء الشهداء التي سالت في ساحة الوطن دفاعاً عن حقوقه وطلباً لتحريره ، وإلى استحكام الخيانة والفساد والرشوة في رجال الحكم ، وإلى الفضائح التي ظهرت في حرب فلسطين والتي دلت على أن الفساد تمكن من أداة الحكم وانتهى إلى إدارة الجيش وظهر في الأسلحة الفاسدة التي زود بها .

ولقد كانت حرب فلسطين السبب المباشر للثورة ، إذ أخذ أولئك الضباط الأحرار ، وفي طليعتهم الضابط الشاب جمال عبد الناصر ، يفكرون في مصير البلاد إذا استمر الحكم على ذلك النوال ، أو الانهيار الذي ستؤول إليه بسبب طغيان القصر بعد أن تعود فاروق وقبله فؤاد تعطيل الدستور ، والاستبداد بالحكم ، والتنكيل بالشعب ، خدمة لمصلحتها ومصلحة بطانيتها وتملقاً للمستعمرين ، أو بسبب تفشي طائفة من العملاء والاجراء الذين يستخدمهم الاستعمار لتحقيق رغباته فلم يلبثوا أن حزبوا أمرهم ، ووضعوا أسس الثورة وأهدافها وعملوا على الوصول إليها حتى تم لهم نخل الطاغية واجراء الاصلاحات المنشودة وتغيير الأوضاع وتشبيد المجتمع الجديد وإقامة صرحه على أسس اشتراكية ديمقراطية تعاونية .

وقد سارت حكومة الثورة بزعامة السيد الرئيس جمال عبد الناصر وتحت رئاسته خطوة خطوة ومرحلة مرحلة في مبادئ السياسة والاقتصاد والاجتماع وحققت جميع ما كان يطمح اليه الشعب في كفاحه من « القضاء على

الاستعمار وأعوانه ، والقضاء على الاقطاع ، والقضاء على الاحتكار ،
والقضاء على سيطرة رأس المال على الحكم ، واقامة عدالة اجتماعية «
وبذلك تحقق ما قاله السيد الرئيس فى « فلسفة الثورة » وهو « أن
القدر لا يهزل . وليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا وجود
يصنعه الهباء » .

وهكذا نجد أن سر نجاح الثورة هو تلك الحكمة التى استعملها
الضابط الشاب جمال عبد الناصر وزملاؤه الضباط الشبان فى وضع خططهم
للاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، والعزم الصادق فى تنفيذها
وكان تجاوبهم مع أبناء الشعب عاملاً كبيراً فى هذا النجاح

كانت اذن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ معركة خاضها الشعب
ضد قوات الاستعمار والطغيان، كانت بيضاء لم تسفك فيها الدماء، وكان
من ظواهرها ما جرى فى الاسكندرية وادى الى تنازل الطاغية فاروق
عن العرش وطرده من البلاد الى لا رجعة .

ولقد رأينا بمناسبة مرور عشر سنين على ذلك الحادث العظيم أن
نسهم فى الاحتفال بذكراه بتقديم هذا الكتاب عن الممارك التى شهدها
الاسكندرية فى تاريخها الطويل الحافل بجلال الأحداث ومفاخر الأعمال ؛
توصف الاسكندرية بأنها الشرفة التى تطل منها مصر ؛ ويطل منها
الشرق على الغرب ، وأنها الباب الذى يلج منه الغرب الى مصر والشرق،
وهذا الوصف هو الذى جعل من الاسكندرية خط الدفاع الأول عن

مصر، وأولى المدن التي تتلقى ضربات الغزاة الفاتحين . وقد كافحت الاسكندرية في كل مرة ما استطاعت أن تكافح ، وقاومت ما قدر لها أن تقاوم، وصدت العدوان بكل ما وجدت الى ذلك سبيلا باقدام المجاهدين المكافح واستبسال الجندي الشجاع ، سواء كانت قواتها متكافئة مع قوات العدو أو كانت تعرف أن مصير مقاومتها الفشل واستشهاد أبنائها الأبطال .

وليس هذا الكتاب سوى تسجيل صفحات البطولة التي كتبتها الاسكندرية بدماء أبنائها البواسل ؛ وهي صفحات مجدمطوية في تاريخها ، ولوحات بارعة رسمتها ريشة رسام ماهر بألوان من نور ، صفحات ولوحات خالدة ما نخلدت البطولة ، باقية على وجه الزمان ما بقي الحماس والوطنية والوعى القومى .

الباب الأول

أول أسطول يزور الاسكندرية

أول اسطول يزور الاسكندرية

لم تشهد الاسكندرية هذه المعركة الأولى لأن حوادثها جرت قبل بناء الاسكندرية بمئات السنين : ولعلها لم تكن معركة بالمعنى المتواضع عليه بين فريقين من الناس ، بل كانت بين وحدات أسطول بحرى وعناصر الطبيعة أو بينها وبين الآلهة .

فقد جرت الحوادث التى سنذكرها أمام جزيرة «فاروس» التى كانت بجائمة على صفحات الماء أمام مدينة « رافوده » أو « راكوتيس » أى فى المكان الذى أنشأ فيه الاسكندر المقدونى المدينة التى أسماها باسمه وجمع فيها بين الجزيرة والمدينة القديمة .

والوصف الوحيد لهذه المعركة تجده فى ملحمة «هوميروس» التى انية : «الأوديسه» التى روى فيها مغامرات البطل «عوليس» ملك جزيرة «ايتاك» وما لقيه من أهوال فى طريق عودته إلى مملكته بعد الانتهاء من حرب طرواده :

كانت هذه الحرب التى نشبت فى القرن الثانى عشر قبل المسيح قد

انتهت وطويت صفحاتها وأخذ الملوك الذين اشتركوا فيها ينفضون عائدتين

إلى بلادهم فوصل بعضهم وطال غياب البعض الآخر :

وكان بين الذين طالت غيبتهم - كما قال هوميروس الذى نظم ملحمته بعد وقوع حوادثها بخمسةائة سنة - المالك عوليس ، فظهرت الالهة « مينرفا » لابنه « تليماك » وحثته على البحث عن والده ونصحته بأن يبدأ بزيارة أقران هذا الوالد من أبطال حرب طرواده ليسألهم كيف عادوا إلى بلادهم وما لقوه فى طريقهم من أخطار على أن يبدأ بالملك « منيلاس » - صاحب سبارطه - لعل فيما يقصونه عليه مايساعده فى البحث عن والده :

وفعل « تليماك » ما أشارت به عليه الهة الحكمة وقصد إلى قصر « منيلاس » برفقة أستاذه « منظور » . ولم يكد « الملك الأشقر » - كما كان يلقب « منيلاس » - يعلم طلب ابن صديقه القديم حتى أخذ يروى كيف عاد إلى قاعه ملكه بعد ان ظفر الملوك المتحالفون بطرواده : واستهل حديثه بقوله :

تحتضن الأمواج أمام مصر جزيرة تدعى « فاروس » تبعد عن النهر مسافة يوم واحد تقطعه السفينة شاقة بحيزونها العباب مسوقة بريح عاتية .

« هناك يقوم ميناء أمين ينطلق فيه الملاحون بمراكبهم إلى أعالي البحار بعد أن يتزودوا بالماء الصافى المنبعث من ينبوع عميق »

وقال « منيلاس » إن الرياح قذفت به إلى تلك الجزيرة وأنه أقام
فى مرفأها الأمين أياما على أمل أن تسعفه الرياح بالعودة إلى بلاده .
ولكنها لم تفعل حتى خاف أن يعوزه الطعام .

وفى هو كذلك ظهرت له « ايدوتيه » إحدى عرائس البحر وابنة
« بروتيه » شيخ البحر ، وابتدت عطفها عليه ودلته على وسيلة يستعملها
للقبض على والدها . وسهلت له السبيل إلى ذلك وأوصته بالإيداع
يفلت من يديه حتى يطاعه على مايجب أن يفعل ليكسب رضى الالهة
فترسل إليه رياحاً مواتية .

ودبر الملك « منيلاس » كميناً له « بروتيه » كما نصحته « ايدوتيه »
واصطحب معه بعض رجاله الأشداء حتى إذا خرج من البحر ليلا
أمسكوا به .

ودارت بين الفريقين معركة دلت على حيل الالهة وقوة الانسان ،
وعلى أن الانسان إذا ثابر وصل . فقد حاول شيخ البحر عبثاً التخلص
من « منيلاس » ورجاله . تحول إلى أسد ضخم ، ثم صار تنيناً فظيماً
ثم فهداً ، فماء صافية تنزلق من بين الأيدي ، فشجرة وافرة الظلال .
ولكن هذا جميعه لم يجده نفعاً . ولما رأى شيخ البحر أن حياه قد
نفدت وأنه يخسر المعركة قال له « منيلاس » .

ان الأقدار تمنع فى عودتك إلى قصر ك العظيم وأن تشاهد حقول
موطنك الجميلة إذا لم تتقدم صعباً على أمواه « ايجيتوس » النهر الذى

أجرى « جوبييتير » مياحه ، إلى حيث تضحى القرايين المقدسة للالهة
الخالدين الذين يقطنون السماء الواسعة . وستيسر لك الالهة إذا فعلت
السبيل لمتابعة السفر الذى تتوق نفسك إلى بلوغ نهايته .

وفى غد ذلك اليوم عند ما تنفس الفجر « ذو الأنامل الوردية »
تاهب « منيلاس » ورجاله للرحيل فقصدوا بمراكبهم إلى نهر « ايجيتوس »
الذى أجرى « جوبييتير » مياحه وضحوا للالهة الخالدة . فهبت ريح
مواتية أسعفتهم بالعودة إلى مدينة « اسبارطة » .

وهكذا انتهت أول معركة جرت بجزيرة « فاروس » التى أصبحت
جزءاً من الاسكندرية ، بفوز الانسان على الأقدار المثلثة بشيخ البحر
« بروتيه » وعلى عناصر الطبيعة ، بالصبر والعناد .



ولعل من الخير أن نشير هنا إلى الجدل الذى دار بين علماء الآثار
حول هذا الذى رواه « هوميروس » فى « الاوديسة » خصوصاً بمد
اكتشاف المهندس « جونديه » بقايا ميناء كبير ؟

ففى مستهل هذا القرن عنى « جونديه » بدراسة شواطئ الاسكندرية
فوجد فى الجهة الشمالية الغربية منها . وفى جنوب المكان الذى كانت
توجد فيه جزيرة « فاروس » على بعد ستائة متر من الشاطئ ميناء
يبلغ عرضه ١٥ متراً ويمتد على مسافة طويلة .

وأهمية هذا الاكتشاف عظيمة لانه يدل على أنه كان يوجد بجزيرة « فاروس » مرفأ أمين واسع الأرجاء عميق الاغوار .

ويعتقد المهندس « جونديه » ان ذلك المرفأ بنى فى عهد رعمسيس الثانى ، أى حوالى القرن الخامس عشر قبل المسيح ، وكان هذا الفرعون كبير العناية بتشيد الآثار الفخمة واقامة الابنية العظيمة حتى لقبه بعضهم بالملك البناء ، كما يعتقد أيضا أنه شيد لرداغات سكان جزيرة كريت عن الشواطىء المصرية : ثم جف سطح الأرض فطغى البحر على الميناء .

وانقسم الباحثون حول هذا الاكتشاف إلى فريقين فريق يؤيد « جونديه » فى مزاعمه وفريق يعارضه .

أما المعارضون فيقولون أن هوميروس نظم الاوديسة بعد خمسمائة سنة من تاريخ وجود الميناء ، وأن ماقاله يحتاج الى تأييد لأنه أشار الى نبع ماء فى الجزيرة فى حين نعرف أنها كانت قاحلة لازرع فيها ولا ماء ، وأن أحدا من قدماء المؤرخين لم يذكر وجود هذا الميناء الضخم الذى كان حرياً أن ينوه به .

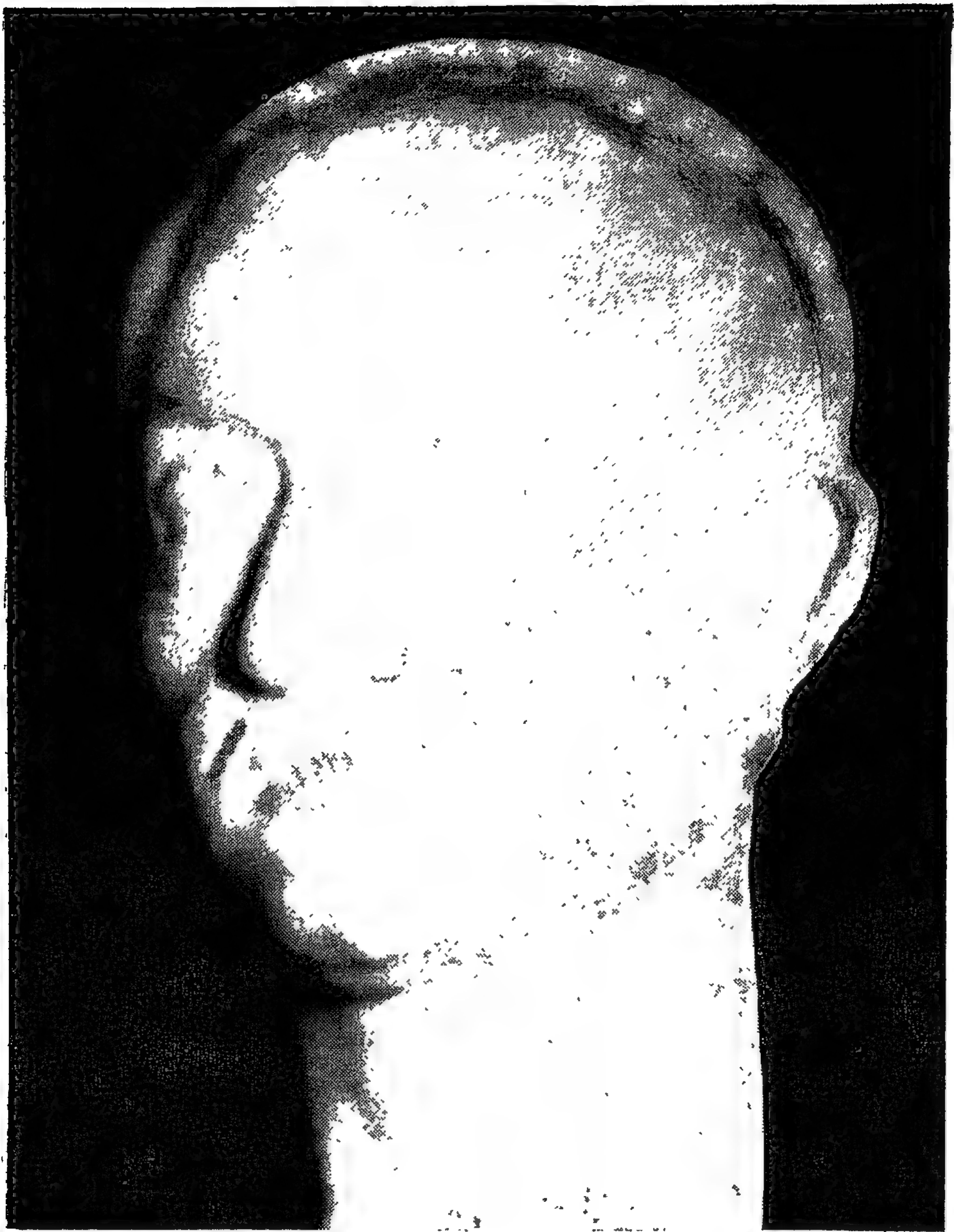
ويضيف المعارضون أن أعمال رعمسيس الثانى مدونة منقوشة ، وأنه حرص فى حياته على كتابة الكثير منها ، ولكننا لانجد فيها اشارة الى بناء ميناء « فاروس » المزعوم . ولعل ما شاهدته «جونديه» ناتج عن فعل البحر واثره فى الصخور .

ولكن العلامة « بريتشا » الذى تولى ادارة متحف بلدية الاسكندرية ردحاً طويلاً من الزمن ، والذى يقف من هذا الاكتشاف بين الشك واليقين ، يرد على هذا الاعتراض الاخير ويقول ان الذين قالوا به لم يشاهدوا الميناء فى قاع البحر لأن منظره لا يترك مجالاً للشك فى أنه بقايا مرفأ كبير .

ونجد على رأس المؤيدين « ريمون ويل » وهو من كبار علماء الآثار . أنه يقول أن اكتشاف « جرنديه » صحيح ولكنه يخالفه فى تاريخ بنائه وفى أن يكون من عمل رعمسيس الثانى لأن المصريين لم يعودوا بناء مرافئهم التجارية على البحر ، بل على النيل ، قبل مصب النهر بقليل . ويستشهد على ذلك بميناء « نوكراتيس » وكانت هذه المانة حيث « فوه » الآن . فيجب أن نبحت عن بنائين من غير المصريين انشأوا ميناء « فاروس » . وكانت اليونان أيامه منقسمة الى دويلات صغيرة ذات تجارة ضعيفة لا تتحمل بناء مرفأ كبير كذلك المرفأ وكان لدى الفنيقيين من المرافئ ما يكفى لتجارتهم . ولذلك يعتقد « ويل » أن بناء المرفأ كانوا الاكريتيين فى عهد يقع بين القرن العشرين والقرن الخامس عشر قبل المسيح .



کلیو باطرا



يوليوس قيصر

الباب الثاني

معارك يوليوس قيصر

معارك يوليوس قيصر

كيف ولماذا جاء يوليوس قيصر الى الاسكندرية؟ هذا حديث ضروري للتمهيد للمعركة التي نشبت بينه وبين جيش البطالمة فيها : وهو كذلك حديث طويل نرى من الخير أن نوجزه فيما يلي .

ورث البطالمة ملك الاسكندرية عن الاسكندر وكان القائد العظيم قد أسسها سنة ٣٣٢ ق.م ؛ وقد تولى أولهم « سوتر » شئون مصر بصفتة نائباً عن فيليب الثاني ثم اسكندر الثاني خليفتي الاسكندر ، ولم يستقل بها ويتخذ لقب ملك الا سنة ٣٠٤ ق.م : وكان حذرا وحكيما فساس الملك بحذق ، ووضع خطة سياسية اهتمدى بها خلفاؤه حتى تغلب النزق على الرأى السديد ، واستبد الهوى بتصرفاتهم ، وركبت الشهوة عقولهم وتحكمت باعمالهم :

وكان هؤلاء البطالمة من أصل يونانى ، لذلك نجد الاوائل منهم يجمعون بين العبث والهوى وبين سياسة الدولة وتدبير أمورها، ويشجعون العلوم والفنون ، فيستقدمون أكابر علماء عصرهم ونخلاصة أدباء اليونان وفنانيتها الى الاسكندرية ، ويبنون القصور الفخمة ؛ وينشئون المعابد الفخمة ، ويؤسسون المدرسة المشهورة ؛ ويجمعون المكتبة التى لم يلد ذكرها على وجه الزمان :

ولكن أولئك الملوك ما لبثوا أن أخذوا يتناحرون حول تولى العرش
فإذا سلسلة من الجرائم لا نهاية لها : فاقتتل الآباء والامهات ، والبنون
والازواج ، والأخوة والأخوات ، إشباعاً لشهواتهم : شهوة الملك ،
وشهوة النزع والعيب : ويجسد المؤرخون أن جرائم القتل الفظيعة التي
كان البطالمة يرتكبونها ظاهرة عجيبة في عهد كانت اواصر الأسرة فيه
متينة الروابط وأواشج القربى محكمة الوضع ؟

وهناك ظاهرة أخرى في أسرة البطالمة لا بد من الإشارة إليها ،
وهي تهافت النساء على تولى الحكم : وفي هذا صدوف عن التقاليد
اليونانية التي كانت تستبعد النساء عن الاشتغال بالسياسة ولا تجد في
المرأة غير مبهجة من مباحج الأسرة حيث تتولى مهام الأم والزوجة ورب البيت
ولعل البطالمة تأثروا في هذه الظاهرة بالبيئة المصرية حيث كانت المرأة
تنعم من قديم الأزمنة بحرية أوسع نطاقاً بكثير مما أتيح لزميلاتها اليونانية
ويرى المؤرخ « أوسكار دي واتيمهر » أن هذه الظاهرة سبب الرغبة
الجامحة التي أيدتها نساء البطالمة في تولى الحكم وطمعهن الشديد للوصول
إلى السلطة والملك : وكانت كليوباترا أقوى مثل يضرب لهذا الظمأ
وتلك الرغبة ، وكانا عندها لا حد لهما :

وجرى سنة ٨٠ ق.م. أن قتل الجند بطليموس الثاني عشر ولم
يكن قد خلف وريثاً للعرش . ولكن الأحزاب السياسية الكبيرة
بالاسكندرية رأت حفظاً للعرش أن يتولاه أحد أبناء البطالمة غير الشرعيين

وكان هناك ولدان من هذا النوع لبطليموس العاشر تولى أحدهما على قبرص وولى الآخر على مصر ،

على أن روما رفضت الاعتراف بهذا الأخير بحجة أنه ابن غير شرعى وان بطليموس الثانى عشر حين رأى العرش آيلا الى الزوال لعدم وجود خليفة من أبناء البطالمة الشرعيين أوصى بالملك لروما اعترافاً بفضله « سيلا » عليه . وكانت مثل هذه الوصيات سارية أيامئذ ، أو أن روما كانت تدعيها لتستولى على الممالك فى لشرق الأوسط دون أن تخوض غمار حرب كما فعلت فى برغامه وبيطيميا ، وكما كانت تريد أن تفعل بمصر ،

كان عملاء روما بالاسكندرية يعملون بمهارة فائقة : ولعلهم فطنوا الى أن الوقت لم يحن لضمها الى روما فأخذوا يمهّدون لذلك بمختلف الوسائل وأهمها التلميح بين حين وآخر الى أن الملك ابن غير شرعى والتهديد بجعله . وبذلك استطاع أولئك العملاء أن يدعموا نفوذ روما وأن يفيدوا أموالا طائلة يبتذونها من الملك .

وكان هذا البطليموس الثالث عشر يعيش حياة عبث ونزق وكان قد أطلق على نفسه لقب « فيلوباطور » ، أى الحب لا بيته ، ولكن الشعب أسماه « أوليت » أى النافخ فى المزمار . وكان النافخ فى المزمار فى الميثولوجيا اليونانية من خصائص الالهة . ولكن الشعب الاسكندرى أراد منها التحقير : وقد آلمه أن يجد مايكه يتبادل بين البغايا ومحترفات الغناء ويشترك معهن بمزماره . ولعله كان يتعزى عن عدم استطاعته حمل

الصولجان بذلك الزمار الذى كان يستخرج منه الحانا شجية .

وثار الشعب السكندرى بهذا الملك لتلك الحياة التى كان يحياها ولكثرة
تلفه لروما ومساعدتها على التوسع فى الشرق فاضطر الى الهرب اليها سنة
٥٩ . وفيها التقى بيوليوس قيصر وبومبيو واتفق معها على أن يدفع
لها مبلغ ستة آلاف مئقال - أى ما يساوى ٢٣ مليون فرنك ذهب -
مقابل تعهده قيصر بأن يحمل مجلس الشيوخ على الاعتراف به ملكا على مصر
وصديقا وحليفا للشعب الرومانى. وهكذا عاد النافخ بالمزمار الى الاسكندرية
سنة ٥٧ ق.م بمساعدة الفرق الرومانية وحمايتها .

وقد توفى سنة ٥١ ق.م. عن ابنتين وصبيين ، كانت
كليوباترا أكبر البنين ، وكانت فى السابعة عشرة من عمرها عند موت
أبيها فى حين كان أخوها فى العاشرة . ولكن الاب أوصى بالعرش
من بعده لكليوباترا وأخيها على أن يتزوجا . واعترفت روما بصحة
الوصية ولم تعترض عليها كما أقراها المصريون . وكانت الأمور لتستقر
بالاسكندرية بعد هذه الوصية لولا ما سجله التاريخ عن طموح كليوباترا
وذكائها البارع الذى أخذت تستعمله فى أقصاء أخيها عن الملك وتفردتها
به . وهكذا دب الخلاف بين الأخ والأخت ثم تحول الى حرب
سافرة .

وكان الزعماء فى روما أخذوا يختلفون فى ذلك العهد ، وخاصة
بومبيو ويوليوس قيصر . فنشبت حرب بينهما وتغلب قيصر على بومبيو
فى واقعة « فرسال » فهرب بومبيو من وجهه ، وانتهى به المطاف

الى مصر حيث قتله أتباع الملك بطليموس الرابع عشر ظنا منهم أنهم بذلك أنهم يتقربون من يوليوس فيساعد الملك الصبي ضد أخته وغميمته كليونبائرا .

وكان قيصر يتبع بومبيو حتى اذا سمع بتوجهه الى مصر سار في أثره وهكذا ظهرت قواته أمام الاسكندرية وأخذ جنوده ينزلون فيها وكان في استعجالهم تيودوت — وكان فياسوفا يونانيا من أتباع بطليموس الرابع عشر ، وصاحب فكرة قتل بومبيو للتقرب من قيصر — وكان حاملا رأس بومبيو ، ويقال أن قيصر حين رآه بكى . وقال بعض المؤرخين أن من يعرف طبيعة قيصر لا يتعجب لتلك الدروع التي ذرفها .

وهكذا دخل قيصر الاسكندرية في سبتمبر سنة ٤٨ ق. م فادهشته عظمتها وندابته محاسنها وعسكرت قواته فيها ورست سفنه في مينائها الكبير ، وأقام هو في القصر الملكي .

وقد استولى الوجوم على الاسكندرانيين عندما رأوا الاعلام الرومانية تحتل فجأة مدينتهم . ثم مالبو أن دبروا أمرهم في الخفاء. وابتدأوا مقاومتهم السرية ، وأخذوا يوقعون بالجنود الرومانيين كما وجدوا الى ذلك سبيلا . وكان معروفا عنهم أنهم سريعو الانفعال وأنهم تعودوا أن يثوروا على الأوضاع التي لا تروقهم . ولذلك أخذ قيصر يحاول التودد إليهم ، فزار الهياكل ، وطاف بقبر الاسكندرواثنى على عظمته ، ودعا علماء المتحف الى القصر الملكي وصار يشترك معهم في الندوات التي يعقدونها لبحث المسائل الفلسفية والتاريخية ، وكان واسع الاطلاع على علوم زمانه متضلعا فيها .

على أنه إلى جانب مظاهر الود هذه أرسل يطلب النجدة من
أسياء الصغرى :

وعكف قيصر على اصلاح ذات البين بين كليوباترا وأخيها
ويخرج عن نطاق هذا البحث وصف دخول كليوباترا عليه في ضيافة
وكيف برزت منها كأنها حلم لذيذ ، وكيف أحبها يوليوس ، ولكنه
تظاهر باحترام وصية الملك السابق وأصلح بين الأخ وأخته ، على أن
مستشاري بطليموس لم يرضوا عن هذا الاتفاق لأنهم كانوا يعلمون أن معناه
فناء بطليموس وحزبه ، وربما قتله ، وتغلب كليوباترا على شئون
المملكة وربط مصر بعربة روما :

وكان مستشارو الملك الفتى ثلاثة أو لهم «بوتان» الخصى ، وكان أقرب
الناس إلى الملك والمشرف الأول على شئون ملكه ، والثاني «أشيلاس» القائد
العام ، وكان مصرياً جريئاً ماهراً في فنون الحرب ، والثالث «تيودوت»
الفيلسوف اليوناني ، وهو الذي ذكرنا من قبل أنه صاحب فكرة قبول
بطليموس إلتجاء بومبيو إليه . واستقبله ببيلوز ، والترحيب به ، ثم الفتك
به وهو في الزورق الذي نقله من السفينة إلى الميناء تقرباً بذلك إلى قيصر وأملا
في أن يساعد بطليموس ضد شقيقته كليوباترا ؛ وقد نفذت هذه الخطة في
القارب الذي ركب بومبيو وحده دون اتباعه للانتقال من سفينته إلى المدينة على
مشهد من هؤلاء الاتباع الذين رأوا أنفسهم عاجزين عن الدفاع عنه ،
وقد عمد «بوتان» بعد ما تقدم إلى مناوأة قيصر وجنوده وإشاعة ما
نسميه بلغة اليوم بالمقاومة السرية :

كان بوتان يثير حتى الجنود الرومانيين في كل مناسبة فكان مثلاً

يقدم لهم خبزا لا يصلح للأكل فاذا احتجوا أجابهم أن من حسن حظهم أن يجدوا مثل هذا الخبز في أرض غريبة . وسحب الاواني الذهبية من موائد القصر واستعاض عنها باواني من الصلصال ؛ وزعم أنه اضطر الى ارسالها لتتحول الى سبائك ونقود ارضاء لمطالب قيصر المالية ؛ وسحب كذلك جميع الاشياء الثمينة من الهياكل بدعوى ارضاء بخل قيصر وجشعه ؛ وهكذا شعر الشعب الاسكندري أنه اصيب بطعنة في الصميم من حساسيته الدينية . وأخيرا نصح «بوتان» قيصر أن يؤجل اهتمامه بتنظيم مصر وأن ينشط لمحاربة اعدائه في البلاد الأخرى فأجابه قيصر بلهجة احتقار أنه لا ينتظر النصيح من أمثاله .

ورأى بوتان أن الرأي العام قد عيى ضد قيصر ؛ وأن الوقت قد حان لمهاجمة قواته وطرده من مصر فأرسل الى قائد الجيش اشيلاس أن يزحف بقواته من بيلوز الى الاسكندرية . وأحس قيصر بالخطر الذي يهدده من جراء ذلك فأرسل الى القائد أمرا باسم بطليموس بأن يعود بالجيش الى معسكراته ولكن اشيلاس لم يعبأ بهذا الامر لأنه كان يعلم مصدره .

وصل اشيلاس على رأس جيشه الى الاسكندرية في أوائل شهر نوفمبر سنة ٤٨ ق. م. وكان جيشه يتألف من عشرين ألفا من المشاة وألفين من الفرسان وإذا كانت قيسمتهم في الحرب والطعان متفاوتة فان عددهم يكفي للتغلب على القلة من المحاربين الذين يتألف منهم جيش قيصر .

ولعل الاسكندرانيين بأكملهم — فيما عدا اليهود — انضموا الى جيش اشيلاس عندما تدفق جنوده من باب كانوب إلى المدينة . وكان في استطاعة

قيصر أن يغادر الاسكندرية وقتئذ ولكنه أبى على نفسه الهرب ووقف يواجه الموقف بفرقتين من الفرق الرومانية .

كان قيصر مستولياً على حي القصور حيث أقام قيادته ، وكان يسيطر على الميناء الكبير الشرقى ، والهيستاد . وهو الجسر الذى يربط بين المدينة وجزيرة فاروس . وعلى الجزيرة نفسها . فلما وصل اشيلاس إلى الاسكندرية احتل المدينة بأكملها مع الميناء الغربى « أينوست » ثم ضرب الحصار على المنطقة التى يعسكر فيها جنود قيصر ولم يلبث أن هدم المباني التى كانت على خطوط الدفاع الاولى .

! كانت هذه المعركة التى خاض قيصر غمارها شبيهة بحرب طراوده لأنه عاناها فى سبيل امرأة ، هى كليوباترا ، وكانت لا تقل جمالا عن « هيلين » القديمة . وكانت المعركة ذات وضع غريب لأن ميدانها مدينة يبلغ عدد سكانها مليوناً من الناس ، مدينة واسعة الأرجاء ممتدة الأطراف ذات مركز تجارى هام لأنها ملتقى الطرق المؤدية الى ثلاث قارات . وكان غريباً أيضاً أن تدور المعارك الحربية فى قلب المدن . أما اليوم وبعد الأخذ بنظرية الدفاع عن المدن ذات الموقع الاستراتيجى ، والقتال من بيت الى بيت ، بل من جزء الى آخر من البيت الواحد ، كما حدث فى إستالينجراد ، وبورسعيد ، صار فى مقدورنا أن نخسن فهم موقعة الاسكندرية التى تقدمت معركة بورسعيد بألفى عام تقريباً .

كان مركز قيصر مهيماً فى الحي المائى فزاده تحصيناً . أما الجيش المصرى والاسكندريون فقد بنو بحجارة المنازل المتهدمة ثلاثة أسوار متلاصقة يبلغ ارتفاعها فى بعض الأحيان أربعين قدماً .

رأى المصريون أن مراكز قيصر مهيمنة وأن من الصعب التغلب عليها من

البر فحاولوا ذلك من البحر بالاستيلاء على الميناء الكبير ليقطعوا عنه المدد من الخارج فيضطر أخيراً إلى التسليم ؛

وهكذا لم يبق أمام قيصر سوى أن ينتصر أو يموت ؛ لأنه وجد نفسه أمام جيش يبلغ عدده ستة أضعاف جيشه يؤيده الاسكندريون بأكملهم ، وتسهل عليه وسائل التموين ؛

وقد فطن قيصر إلى خطة المصريين ، فخصوصاً بعد إستيلائهم على الهيرواسناد وجزيرة فاروس ؛ وكان في الميناء الشرقي أكثر من خمسين سفينة حربية كانت قد أرسلت لمساعدة بومبيو في واقعة « فرسال » ثم عادت دون أن تشترك فيها فأحرقها قيصر مخافة أن يستولى عليها المصريون ويستعملونها ضده ؛

وقد امتد لهب الحرق من الميناء إلى المدينة وأصاب خاصة المنطقة التي يحتلها قيصر واتصل بالمكتبة والمتحف فأتلف ما فيها من الكتب التي لا يعوض ، وذهب مع تلك الكتب الكثير من علوم الأقدمين مما لا سبيل إلى تقدير قيمته ؛ وقد اختلف المؤرخون حول مدى اتساع الحريق فبعضهم يقول أنه قضى على المكتبة ، ومنهم من يرى أنه اقتصر على الملفات التي كانت معروضة على أرصفة الميناء ؛

وليس هنا مجال جدل كهذا وإنما نكتفي بالإشارة إلى أن أنطونيوس أهدى كليوباترا مكتبة برغامة فيما بعد وأن بعض المؤرخين رأوا في هذه الهدية تعويضاً عن الحريق الذي أصاب مكتبة الاسكندرية بفعل واقعة قيصر ؛

وبينما كانت الواقعة دائرة وصلت الفرقة الرومانية السابعة والثلاثون إلى

الاسكندرزية وانضمت الى قوات قيصر فقرر أن يستعيد الهيبياستاد ويجوز جزيرة فاروس ، وكان لازماً عليه للوصول إلى هذا الهدف التضاء على الاسطول المصرى . فجهز سفنه وقصدها إلى الميناء الغربى الصغير حيث نشبت موقعة بحرية بين الاسطولين المصرى والرومانى على رأى من الاسكندريين الذين كانوا يشاهدون من سطوح منازلهم هذا المنظر الفريد .

وقد نجح هجوم قيصر فى بادىء الامر واستولى على الهيبياستاد وجزيرة فاروس ، وتمهدت أثناء هذا الهجوم مبانى الجزيرة فتتل من سكانها من قتل وأسروا من أسر ، وغرق الذين حاولوا الفرار بحراً .

ولكن المصريين لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وقاموا بهجوم مضاد وجعلوا الرومانيين فى موقف خطير واضطروهم إلى التخلي عن الهيبياستاد . ووصف المؤرخون إرتدادهم بأنه كان اندحاراً .

وقد حاول قيصر جمع شمل جنوده فلم يستطع فركب قارباً لينتقل بحراً من الجزيرة الى القصر أى من الطرف الغربى من الميناء الشرقى الى الطرف الآخر .

ويظهر أن القارب إمتلأ بالماء وأشرف على الغرق فقفز قيصر الى الماء وقطع المسافة سباحة . وكان سباحاً ماهراً ورياضياً قوى العضلات . وجاء فى بعض الروايات أنه كان يسبح بيد واحدة فى حين يرفع فوق سطح الماء باليد الأخرى دثار القيادة الذى كان يتدثر به وبعض الوثائق الهامة . وهكذا عاد

إلى مقر قيادته وأقام فيه منتظراً الامداد من اسيا الصغرى .

كان القصر الملكى أخذ يضطرب بمختلف الحوادث بعد غياب قيصر عنه من ذلك أن « أرسينوه » أخت كليوباترا الصغرة - استطاعت أن تخرج من القصر مع تابعيها « جانيميد » الخصى والحق بالجيوش المصرى فى المدينة ؛ كما استطاعت فى غياب الملك بطليموس أن تتولى الملك فلم يلبث أن نشب الخلاف بين « جانيميد » والقائد « اشيلاس » فامرت « ارسينوه » بقتل القائد .

وأخذ « جانيميد » يناوىء الرومان فخلط ماء البحر بمياه النيل التى تنقل الى القصر بالاقنية فأمر قيصر بحفر الآبار للاستعاضة بها عن المياه التى تأتى من الخارج .

والقى قيصر القبض على « بوتان » بحجة اتصاله بالاعداء وأمر باعدامه . ثم شاء أن يتخلص من بطليموس فسمح له بالخروج من القصر والحق بجيشه وزوده بالنصائح للعمل لخير شعبه وتقدمه . ولم يكد الملك الفتى يصل الى معسكر جيشه حتى اختفى « جانيميد » ولم يعرف هل لاذ بالفرار أم قتل .

وفى أثناء ذلك كانت الامداد تتجه من آسيا الى مصر . هذه احدى الفرق الرومانية يرسلها « كالفينوس » نائب قيصر فى آسيا الصغرى وتصل الى بيسلوز ثم تركب البحر قاصدة الى الاسكندرية ، ولكنها لم تستطيع النزول فيها لأن المراكب التى تحملها اصطدمت فى

كانوب (أبو قير) فى شهر مارس ٤٧ ق.م. بالأسطول المصرى الذى كان يضرب الحصار على قيصر ويحول دون وصول الأمداد إليه .
فارتدت على أعقابها .

وهب « ميثريدات » ، الوالى الرومانى على برغامه الى نجدة قيصر
فجمع جيشاً خليطاً من العناصر التى استطاع جمعها فى آسيا الصغرى ،
وسار على رأسها الى مصر فاستولى على بيلوز بدون مقاومة تذكر ثم
زحف الى الجنوب محاذياً فرع النيل البيلوزى حتى وصل الى تنيس
حيث اشتبك فى معركة مع الجيش المصرى فى الموضع المعروف باسم
« معسكر اليهود » وتغلب عليه وعبر النيل وسار فى اتجاه الاسكندرية
بجانب الفرع الكانوبى .

ولا نجد بعد هذا تفصيلات وافية فى كتب التاريخ عن الاستعدادات
الاستراتيجية التى اتخذها الفريقان . وكل ما نعرفه منها أن بطليموس
أسرع بجيشه ليصد زحف « ميثريدات » ، ولعله ترك وحدات من
هذا الجيش للاستمرار فى الحصار الذى ضربه على القوات الرومانية ،
ولكن المؤرخين منذ ذلك الحين لم يذكروا شيئاً عن الجيش المصرى
المرابط بالاسكندرية .

أما قيصر فقد قرر الخروج من الاسكندرية لمساعدة جيش « ميثريدات » ،
وهنا نجهل أيضاً كيف تم خروجه ، ولعله استبقى قوات للدفاع عن
الحى الملكى الذى كان يقيم فيه . وكل ما قيل فى هذا الصدد أن قيصر

سار الى جانب الشاطئ تؤيده سفنه الحربية متجهها نحو الشرق ، ولكنه عندما جن الليل أطفأ أنوار معسكره وقفل راجعاً نحو الغرب واستدار بالاسكندرية مسرعاً في سيره حتى اتصل بجيش ميتريدات على النيل وهاجم الجيشان المصري الذي كان قد ارتد الى الدلتا ، فانخرقت قوات قيصر صفوفه ثم استولى في اليوم التالي بخدعة حربية على مقر القيادة المصرية فلاذ الملك بطليموس بالفرار وحاول اجتياز النيل سباحة فغرق وأرسل قيصر درعه الذهبي الى الاسكندرية دليلاً على موته .

وعاد قيصر الى الاسكندرية ودخلها دخول المنتصر .

* * *

وكان الاسكندريون يشهدون لأول مرة في تاريخ مدينتهم قوات أجنبية تدخلها دخول الظافر بعد معارك خذلت فيها القوات المصرية . فارتدوا ثياب الحداد وقبعوا في منازلهم حتى لا يشاهدوا الفرق الرومانية تسير في الشوارع . ولعله كان يتنازعهم الى جانب الحزن عامل الخوف من أن يبيع قيصر المدينة لجيوشه . ولكنه لم يعامل الاسكندرية كما كانت تعامل المدن التي تفتح عنوة بعد الظفر بها ، بل استبقى عليها : فلم يبيعها لجنوده ولم يرهقها نهباً وتدميراً .

أجل لقد كان قيصر انساناً يحسن معاملة من يظفر بهم إذا لم تكن

هناك دواع سياسية تضطره الى استعمال القسوة والبطش، وكان سياسياً يعرف أن الغرض الاصيل من مجيئه الى مصر كان لنشر السلام في ربوعها لا الحرب، وكان فنانا يقدر جمال المدن وروعة أبنيتها، وكان الى هذا وذاك عاشقاً يحرص على أن تكون قاعدة ملك من أحب سلطنة من الدمار نامية مزدهرة .

وانذاك نجد قيصر يخاطب الاسكندرلين فيطمئنهم ويطلب منهم العمل على اصلاح مدينتهم التي أصابها بعض الخراب من جراء الحرب التي نشبت فيها .



يجب أن نطوى ست عشرة سنة أو أكثر حتى نصل الى سنة ٣١ ق. م . ونشهد الفرق الرومانية تدخل الاسكندرية من جديد دخول الظافر المنتصر . وكانت كليوباترا قد تولت العرش طول هذه المدة، وعانت من سياسة الملك ما عانت، وتوسلت للاحتفاظ به بالحرب والجمال والخداع والبطش حتى نفذت جميع هذه الوسائل، وانتحر انطونيوس، واستولى اكتافيوس على مصر، وأخذ يستعد ليضم الملكة الى موكب النصر عند عودته الى روما. ولكنها لم تتمكن من ذلك . اما الاسكندريون وكانوا خليطاً عجيباً جاءوا الى عاصمة الشرق من مختلف البلدان لأغراض متنوعة ، فقد شاهدوا الجنود الرومانيين في مدينتهم وهم على ما كانوا

من قبل يتنازعهم عاملاً الحزن والخوف : ولكن أوكتافيو استهواه جمال
المدينة كما استهوى قيصر من قبل فأبقى عليها وتودد إلى سكانها فدخلها
والى بجانبه أستاذ الفيلسوف أريوس السكندري، وألقى فيها خطاباً باللغة
اليونانية بالرغم من أنه لم يكن يجيد هذه اللغة .

ولكن هذا لم يطمئن الاسكندريين الذين شهدوا واجفان زوال استقلالهم
وابتداء الاستعمار الروماني :

البَابُ الثَّالِثُ

الفتح العربي

الفتح العربى

فتح العرب الاسكندرية مرتين مرة صلحا والأخرى عنوة

لم يكبد يتم لعمر و بن العاص الاستيلاء صلحا على حصن نابليون فى التاسع من أبريل سنة ٦٤١م. بعد حصار دام سبعة شهور حتى قرر متابعة زحفه الى الاسكندرية، وكان الروم الذين كانوا يقيمون فى داخل مصر قد نزحوا اليها، فكان أول عمل قام به عمرو فى هذا السبيل أن أمر بأقامة جسر من السفن على النيل يصل بين الحصن والروضة، ثم بين الروضة والجيزة ليستطيع الاشراف على النهر وما ينتقل فيه من سفن وبضاعة.

وقد وجد عمرو فى السير بجيشه حتى يستطيع الوصول إلى الاسكندرية قبل عهد الفيضان وتجمعت جيوش الروم فى الطريق لمنعهم عن السير ولكنه كان يتغلب عليها ويدفعها أمامه. وقد تم له تعبيد الطريق بعد فتح مدينة نقيوس -- مدينة حنا النقيوسى الذى تعد اليوميات التى كتبها مصدراً هاماً فى تاريخ فتح العرب لمصر لأنه عاصر هذا الفتح وشهده وعاش أحداثه -- وكانت تقع على النيل فى الشمال الغربى من منوف حيث قرية شبشير اليوم. وكان فتح هذه المدينة المنيعه أكبر ضربة أصابت الروم فتمزقت أوصال جيوشهم وتفرقت سفنهم المنتشرة فى النهر وأخذوا يرتدون أمام العرب حتى وصلوا الى الاسكندرية.

وكانت الاسكندرية وقتئذ على جانب كبير من المنعة تدور بها الاسوار الضخمة وعليها المجانيق القوية المريعة وتحميها الغياض والبحيرات. والترعة

ويحول البحر دون أحكام ضرب الحصار عليها وكان فيها أكثر من خمسين ألف مقاتل، وكانت الاقوات وفيرة فيها تأتيها من البحر :

على أن العرب كانوا قد فتحوا من قبل مدنا لا تقل مناعة عن الاسكندرية ولم تعق حصونها دون ذلك ؛ وكانوا لذلك شديدي الايمان بقوتهم والثقة بتفوقهم . ولذلك لم يكادوا يصلوا الى الاسكندرية حتى هاجموا الاسوار فتصدت لهم الآلات التي كانت عليها ؛ ورمت المجانيق عليهم الحجارة الكبيرة فارتدوا مبتعدين عن مدى رمي الحجارة واكتفوا بضرب الحصار عليها وقطع الصلة بينها وبين الروم في سائر بلاد الدلتا :

ومرت الايام والحالة على ما هي عليه فقرر عمرو أن يخلف أمام الاسكندرية جيشاً كافياً للرباط وأن يسير بالباقي من جيشه ليستول على بلاد مصر السفلى ، قبل أن يتعذر على الجيش السير في عهد الفيضان الذي أصبح وشيكاً .

وينخرج عن نطاق هذا البحث ذكر المعارك التي خاض العرب غمارها في تلك الرحلة ؛ وماذا تم في معسكر الروم ، وكيف عاد البطريق « قيرس » - وهو في نظر البعض المعنى باسم المقوقس - الى الاسكندرية ، وإنما يهمنا أن نقول أن عمرو بن العاص عاد الى حصن نابليون عند ابتداء الفيضان حيث وافاه « قيرس » وأخذنا يتفاوضان في تسليم الاسكندرية صلحاً حتى تم الاتفاق على جميع شروطه ؛ وكتب بذلك عقد في الثامن من شهر نوفمبر سنة ٦٤١ . وقد لخص « بتلر » في كتابه « فتح العرب لمصر » تلك الشروط ونظمها كما يلي :

- ١ — أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد .
 - ٢ — أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهى فى أول شهر بابه القبطى الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ (أى أحد عشر شهراً من الشهور القمرية) وهى المدة التى وقفت للهدنة لاستشارة الخليفة عمر بن الخطاب وملاك الروم هرقل بشأنها وموافقتهما عليها .
 - ٣ — أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ؛ ولا يسعوا أى سعى لقتال الاسكندرية ، وأن يكف الروم عن القتال .
 - ٤ — أن ترحل مساحة الاسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها على أن من أراد الرحيل من بجانب البرفله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى فى أرض مصر أثناء رحلته .
 - ٥ — أن لا يعود جيش من الروم الى مصر أو يسعى لردّها .
 - ٦ — أن لا يتعرض المسلمون لكنائس المسيحيين ولا يتدخلوا فى أمورهم أى تدخل .
 - ٧ — أن يباح لليهود الإقامة فى الاسكندرية .
 - ٨ — أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضمانا لإنفاذ العقد .
- وبعد التوقيع على هذا العقد أوفد عمرو بن العاص رسولا إلى عمر بن الخطاب كما سافر قيرس بنفسه الى القسطنطينية للحصول على موافقة

الامبراطور . وقد جاءت الموافقتان وتم ترتيب عملية التسليم دون أن يعلم بها السكندريون . وقد عرفوا ذلك بغتة حين اقتربت فئة من العرب من المدينة . فلم يكذب يراهم الحرس على أسوار المدينة حتى دقوا الأبواق وأسرع الجنود ليأخذوا أماكنهم من الأسوار للدفاع . ولكن العرب ظلوا في طريقهم غير عابئين بتلك الجلبة ، وكانوا يحملون أعلام الهدنة والسلام ، حتى إذا أصبحوا على مقربة من جنود الروم أخبروهم بما كان من عقد الصلح .

وقد ثار الاسكندريون عندما علموا بما دبر لمدينتهم بغير درايتهم ولكن قيرس عرف كيف يخفف عليهم الأمر ويشرح لهم فوائد التسليم مستعينا على ذال ببلاغته الخطابية وكبر سنه وطول تجاربه وعلمه مقامه وبذلك استطاع إقناعهم برجاحة رأيه وصدق نظريته .

وهكذا تم فتح الاسكندرية صباحا في العاشر من ديسمبر سنة ٦٤١ ونفذت شروط الهدنة بأمانة ، وأخذت السفن تنقل من يريد الجلاء عن الاسكندرية إلى رودس أو القسطنطينية . وأصيب قيرس بمرض الدوسنطاريا ومات يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ٦٤٢ . وهكذا لم يشهد زوال ملك الروم نهائيا عن الاسكندرية .

وقد جهزت سفن أسطول الروم ، وأذن لها بمغادرة ميناء الاسكندرية حاملة قائد الجيش وكبار ضباطه والبقية الباقية من فلوله وكان ذلك فى السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ ، وفى التاسع والعشرين من هذا الشهر انقضت مدة الهدنة وأنتهت الاحد عشر شهراً وفتحت المدينة أبوابها ودخلها عمرو على رأس جيشه . وطاف شوارعها

التي يحيط بها من الجانبين القصور المنيفة والاعمدة الرخامية البراقة ؛
فراق للعرب ذلك الجمال الأخاذ وتلك العظمة الرائعة التي انطبعت بها
الاسكندرية وتميزت بسماتها ، وامتلأت كتب التاريخ العربية وغير
العربية بوصفها .

دارت الايام مدى ثلاث سنين أو أكثر . سلسلت فيها الأمور
لعمر بن العاص ؛ وأخذ يدير شئون الحكم وينظم الجزية ، وقتل
خلالها عمر بن الخطاب في ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ وبويع بالخلافة من
بعده لعمان بن عفان . وكان عمر في آخر حياته قد حد من سلطان
عمرو بن العاص فولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح (١) حاكم الصعيد
وجعل اليه جباية الخراج . فلما جاء عثمان عزل عمرو وولى عبد الله على
مصر ، فكان في طليعة أعماله زيادة الضرائب على أهل الاسكندرية .
ولعل جماعة من زعمائهم حين أحسوا بثقل العبء الملقى على عاتقهم
كتبوا الى الامبراطور قسطنطين رسالة يطالبون فيها منه إنقاذهم من
حكم العرب ويقولون أن حامية الاسكندرية قليلة العدد - وكان قوامها
ألف رجل - وأن وسائل الدفاع ضعيفة . فامر الامبراطور باعداد
حملة قوية وعقد لواءها للقائد « مانويل » كما أمر بكتمان خبرها ،
وهكذا فوجيء العرب في أواخر سنة ٦٤٥ م بوصول أسطول مؤلف
من ثلاثمائة سفينة يظهر أمام الاسكندرية ويرسو في مينائها ويبدأ بأنزال
قواته الى المدينة .

(١) أنظر عن عبد الله بن سعد بن أبي سرح الفصل التالي

ولم تكن للعرب معرفة بشئون البحر ولا توجد لديهم سفينة واحدة لتأتيهم بأخبار الحملة التي دبرت والاسطول الذي مخر بها عباب البحار وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد نهى معاوية بن أبي سفيان ، وكان على الشام ، عن تجهيز السفن (١) .

وهكذا أخذ العرب على غرة فاستولى الروم على الاسكندرية وتوغلوا في الدلتا ، واستولوا على المدن والقرى فيها فنهبوا ما شاء لهم أن ينهبوا ونعموا ما شاء لهم أن ينعموا . مضيعين الفرص السائخة مسيئين الى السكان من مصريين وغير مصريين ، وسواء لديهم الاقباط منهم او العرب .

وكان عبد الله بن سعد أعجز من أن يواجه الموقف وأن يصد هجوم الروم ، وكان قد أهمل تحصين البلاد بحيث لم يجد جيش « مانويل » أمامه ما يصدده . لذلك لم يكد يصل هذا الجيش الى الاسكندرية حتى بادر أهل مصر الى المطالبة بعودة عمرو بن العاص لما له من معرفة بالحرب وهيبة لدى العدو فلبى عثمان طلبهم وأصدر أمره الى عمرو ، وكان قد أقام بمكة بعد عزله ، بالعودة الى مصر وتولى قيادة الجيش . وهكذا فعل .

وكان جيش « مانويل » لا يزال بالاسكندرية وقد انضم اليه الروم الذين بقوا فيها . وعندنا وصل عمرو الى مصر أشار عليه خارجة بن حذافة بمبادرة الروم القتال وهم لا يزالون في المدينة فلا يتيح لهم

(١) انظر هذا الموضوع في الفصل التالي

فرصة الخروج منها وانضمام أهل القرى والمدن اليهم مخافة أن تنتقض مصر كلها على العرب ويحتاج الى فتحها من جديد . ولكن عمرو فضل أن يدعهم يأتون اليه بحصن نابليون كي يطول الطريق عليهم ، ويبتعدوا عن مراكز تموينهم - كما نقول في لغة اليوم ، أوعلى حد قول المقرئى « فانهم يصيدون من مروا به فيخزى الله بعضهم بعضاً » واستطرد المقرئى قائلاً « فخرجوا (أى الروم) من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نقيوس » فدارت عند هذه المدينة معركة هزم فيها العرب الروم فولوا هاربين والعرب فى أعقابهم حتى وصلوا الى الاسكندرية ، وأغلقوا أبوابها وتحصنوا وراء أسوارها .

وعندما وصل عمرو على رأس جيشه الى الاسكندرية ورأى منعة أسوارها أدرك نخطأه لأنه ترك هذه الأسوار قائمة عندما استولى عليها فى المرة الأولى وندم على ذلك وأقسم أنه لئن أظفره الله بها ليهدم من الأسوار حتى تتساوى والأرض وحتى تصبح المدينة « مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان » .

وتلمس عمرو أما كن الضعف فى أسوار المدينة فوجد أن الحصار أصح ما يكون من الجانب الشرقى منها ، فأقام آلات الحصار وتمكن من تصديع الأسوار . وفى رواية أخرى أن الحصار نجح بفضل خيانة وقعت من الداخل : فقد قيل أنه كان على أبواب المدينة بواب اسمه ابن بسامة فسأل عمرو أن يؤمنه على نفسه وأهله وأرضه فيفتح له الباب فأجابته عمرو الى ذلك :

وسواء صدقت هذه الرواية أو تلك فإن العرب دخلوا المدينة عنوة فامعنوا فى القتل والنهب حتى كادت تلقى جزء المدن المقهورة . ولكنه عندما وصل الجيش الى أواسط المدينة أمر عمرو بالكف عن تلك الأعمال ، وأن يرفع الجنود أيديهم ، وأن يبنى مسجد فى المكان الذى أمر فيه برفع السيف فأسمى « مسجد الرحمة » وكان بين القتلى فى ذلك اليوم « مانويل » قائد الحملة ، ولاذ فلول الجيش بالسفر فاقامت بهم .

وقد بر عمرو بقسمه فهدم الاسوار الشرقية حتى سواها بالأرض .

وهكذا تم للعرب فتح الاسكندرية عنوة وأمنوا انتفاض أهلها مرة أخرى . .

وكان ذلك صيف سنة ٦٤٦ هـ

الباب الرابع

معركة ذات الصواري

معركة ذات الصواري

لم تقع هذه المعركة فى الاسكندرية ، ولكنها كانت على صلة وثيقة بالاسكندرية ، فهى نفحة من نفحات جهادها ، وثمره من ثمرات نشاطها . ففيها بنى جانب من السفن التى اشتركت فى المعركة وعمدت الاجتماعات لتدبير أمرها ، وجرى الاستعداد لها . وإذا كان بعض المؤرخين الاجانب يقولون انها وقعت بالقرب من « فنيكس » أمام الشواطئ السورية ، فإن رأى الأرجح أنها جرت أمام ما يسميه بعض المؤرخين الاجانب بـ « فونيكه » الواقعة غرب الاسكندرية وهى ما نسميه اليوم « فوكه » ، ولعل هذا ما حمل صاحب النجوم الزاهرة « على القول بأن « غزوة ذات الصواري » جرت « فى البحر من ناحية الاسكندرية » .

...

لم يعرف العرب البحر فى الجاهلية كما عرفته غيرهم من الامم ، وهذا ما نستنتجه مما وصل الينا من أشعارهم التى تعتبر سجلاً أميناً لمعارفهم وعاداتهم وطريقة معيشتهم . فبينما تفيض أشعارهم بوصف الناقة والمفاوز التى يقطعها الشاعر على ظهرها فاننا لا نكاد نجد ذكراً للبحر والسفن إلا فى معرض الفخر فى مثل قول عمر بن كاثوم حين فأنخر بأن قومه يملأون ظهر البحر سنينا .

على أنهم بعد أن ظهر الاسلام وتعددت فتوحات العرب وتأسست دولتهم أحسوا بالحاجة الى أن يكون لهم أسطول . وكان أول من شعر بذلك

معاوية بن أبي سفيان عندما ولى الشام . رلا عجب فقد وجد أن تغور الشام مفتوحة لغزوات الروم وهجماتهم ، وأنه لا يحسن الدفاع عنها لأنهم كانوا يفاجئونها من البحر : فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى أن ينذى أسطولا وأن يغزو قبرص لأنها كانت قاعدة لغزوات الروم ، وقد شاء أن يؤثر فيه فقال فى كثير من الغزوات : « يأبى المؤمنين أن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » .

وكان عمر لا يعرف ما هو البحر وإنما سمع بالحروب التى تجرى فيه فكتب الى عمرو بن العاص بمصر يسأله عن ذلك ويطلب منه أن يصف له البحر وراكبه فبعث عمرو إليه بكتاب قال فيه : « انى رأيت خلقا كبيراً يركبه خلق قليل . إن ركن فرق القلوب ، وأن تحرك ازاح العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة : هم فيه كدود على عود ، أن مال غرق وإن نجا برق » فكان وصفه هذا باعثاً لعمر على الاشفاق منه بالرغم مما عرف عنه من إقدام وشجاعة . فكتب الى معاوية ينهاه عن ركوب البحر ويقول : « لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وقد باغنى أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله تعالى كل يوم وليلة أن يفيض على الأرض ويغرقها فكيف أحمل الجنود فى البحر الكافر المستعصى بالله . مسلم واحد أحب الى مما حوت الروم . »

ولعل هذا أيضاً هو السبب فى أن عمراً أبى على عمرو بن العاص أن يتخذ من الاسكندرية مقراً له ، ورغب إليه فى أن يجعل القسطنطينية

عاصمة مصر : وقد أبقى عمر أن تكون العاصمة على ساحل البحر وأن يكون بينه وبين الجنود المسلمين النيل وترعه المتشابكة :

فاضطر معاوية الى تقوية الحاميات في المدن الساحلية وانشاء الرباط فيها ، وكان يقصد بالرباط أصلاً الحصون التي يتجمع فيها الجنود للدفاع عن المناطق التي تتعرض لغارات أساطيل الروم . ثم توسع معناه حتى شمل جميع الحصون التي يقيم فيها الجنود .

وقد صدقت نظرية معاوية في ضرورة انشاء أسطول لاستطلاع ما يدبره الروم في البحر إن لم يكن لمهاجمتهم فيه . فقد جرى بعد مقتل عمر بن الخطاب في ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ أن فكر الروم في استرداد الاسكندرية ومصر - على ما روينا - في الفصل السابق - فانشأوا أسطولاً كبيراً عدته ثلاثمائة سفينة فاجأ العرب ودخل ميناء الاسكندرية على حين غرة . ولم يكن في المدينة سوى الف رجل للدفاع عنها، ولم يستطع العرب الاستعداد له لأنه لم تكن لديهم سفينة واحدة تأتيهم بأنباء ما يدبر لهم في البحر . وقد كان هذا حجة لمعاوية لدى الخليفة عثمان بن عفان فأذن له بعد ما ببناء أسطول وغزو قبرص ولكن على شرط أن يجعل الجهاد في البحر اختيارياً .

وقد جاء في كتاب بعث به عثمان لمعاوية : « اتنب الناس ولا تقع بينهم . خيرهم ، فمن اخار العزو طمعاً فاحمله واعنه . . . » وقد كثر المتطوعون لهذا العزو لان مدن الساحل كانت زاخرة بالنائتين الى ركوب البحر والطاعين في الاقطاعات .

وقد وجسد معاوية في عبدالله بن أبي سرح الذي عينه عثمان على مصر بعد عمرو بن العاص مساعداً وعضداً كبيراً في انشاء الأسطول ، وكان عبدالله عاملاً على الفيوم - وفي رواية أنه كان على الصعيد - عندما جاءه كتاب الولاية على مصر فانتقل الى القسطنطينية وأقام فيها ، وجاء في « النجوم الزاهرة » أنه كان أخ عثمان لأمه : وأن عثمان « شفع له يوم الفتح حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم أهدر دمه »

وقد اختلف المؤرخون في الحكم عليه . فقيل النواوى أنه كان من أعتل قریش وأشرفهم : ولكن عمرو بن العاص نعى عليه ضعفه وقلة كفايته في حكم البلاد وقيادة الجيوش . ووصفه الطبرى بأشنع الصفات فقال أنه لم يكن في وكلاء عثمان اسوأ من عبدالله والى مصر : أما ابن تغرى بردى فقد قال عنه أنه « لما ولي مصر أحسن السيرة في الرعية ، وكان جواداً كريماً : » .

ومهما قيل في سياسة عبد الله للحكم ، وفي معاملته للرعية واخفاقه في الدفاع عن مصر عند هجوم الروم عليها حتى اضطر عمرو بن العاص الى التقدم اليها لردهم ، فإنه يجب أن نحمد له أنه كان العضد الأكبر لمعاوية لانشاء أسطول عربي خصوصاً أن صناعة السفن كانت تتم بادىء ذى بدء في مصر - في الاسكندرية والقناطر - وكان الخشب يرسل من الشام . ثم أحسن معاوية بالحاجة الى انشاء دور أخرى لصناعة السفن في غير مصر فأسس أول دار في عكا سنة ٦٦٩ .

وهكذا استطاع العرب بالأسطول الذي انشأوه الاستيلاء على جزيرة

قبرص (٦٤٩) وجزيرة ارواد (٦٥٩) والأغارة على جزيرة رودس وصقلية وأقريطش لتأديب الروم :



أما أول مرة التقى فيها الأسطول العربى بالأسطول الرومى فكانت فى المعركة المعروفة باسم « ذات الصوارى » ، وقد سعت كذلك لكثرة صوارى المراكب التى تجمعت فيها . والافرنج يسمونها بمعركة « فونيكة » لوقوعها بالقرب من المكان المعروف بهذا الاسم - كما أشرنا من قبل - والواقع غرب الاسكندرية وهو ما نسميه اليوم بفركه .

وقد استعد القريقتان ، وخاصة الروم ، لهذه المعركة :

كان امبراطورهم قسطنطين الثانى ينظر بعين النلق الى تزايد قوة العرب والغارات التى تقوم بها سفنهم ونخشى أن تفلت من أيدى الروم السيطرة على المنطقة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط التى كانت محالا لسفن الروم تروح فيها وتغدو دون أى مزاحم حتى نشأ الاسطول العربى وأخذ يضايق تحركاتها ويزاحمها على هذه اليادة ويتفوق عليها . فابتدأ قسطنطين باصلاح داخلية بلاده وقمع جميع الفتن ونشر الأمن فيها ، ثم انشأ أسطولا قوامه الف سفينة سار به شطر الاسكندرية ، فى حين كان الأسطول العربى مؤلفاً من مائتى سفينة فقط بعد أن انضمت سفن الشام الى سفن مصر . وعقد لوائه على عبدالله بن أبى السرح الوالى على مصر .

وهال العرب ما سمعوه عن كثرة عدد سفن الروم فجمع عبد الله

رجاله وشاورهم فى الأمر وقال : « بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل عليكم فى ألف مركب فأشيروا على » فلم يرد عليه أحد من العرب ثم أعاد الكرة ولكن أحدا لم يتكلم أيضاً أما فى المرة الثالثة فتمثل أحد رجاله بالاية الكريمة « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله » . وقد شجعت الاية عبدالله فأخذ عدته للقتال .

والتقى الاسطولان فى ٢٩ أغسطس سنة ٦٥٤ فشرع العرب يطأون على سفن الروم ذخيرتهم . وكان فى أعلى الصواري صناديق مفتوحة من أعلاها تسبى توابيت يصعد اليها الرجال قبل ملاقات العدو للكشف عنه أو لرميه بالحجارة أو بتوارير النمنط لاشعال الحرائق ، أو بجرار النورة (وهو مسحوق ناعم يعمى الجنود بخباره لأنه مزيج من الكلس والزرنيخ) ، وبقدور الحيات والعقارب الى غير ذلك . ولما رأوا نفاد ذخيرتهم ربطوا سمنهم بعضها ببعض حتى أصبحت ميدانا صالحا للقتال بالسيوف . واجتذبوا اليهم سمن العدو بالخطاطيف وهكذا التحم الفريقان وتقابلا وكثر عدد القتلى حتى « رجعت الدماء الى الساحل تنثر بها الأمواج وطرحت الأمواج الرجال ركاما » كما قال الطبرى .

وحاول الامبراطور الهجوم على السفينة التى تقبّل عبدالله بن أبي سرح أمير البحر العربى ليووقع الاضطراب فى صفوف العرب فأمر جنوده بقاء فخطاف علق بالسفينة وأخذوا يجذبونها . ولكن عائمة بن زبد العظيفى برز للسلاسل وأخذ يضربها بحد سيفه غير ملتفت الى السهام التى كانت تصوب اليه وتتناثر حوله حتى استطاع قطعها وانقذ سفينة القيادة .

ودام القتال بين الفريقين حتى هزمت سفن الروم وأضطر الامبراطور
أن يختفى فى زى ابن أحد ضاربى الطبول وفر على إحدى السفن الى
صقلية حيث قتل :



هذه هى « غزوة ذات الصوارى » ، وهى من المعارك الحاسمة
التي قلبت الأوضاع وغيّرت مجرى التاريخ، لأنها كانت السبب فى تقاوص
سيطرة أسطول الروم عن البحر المتوسط وإحلال أسطول العرب محله. وبعدها
استطاعت السفن العربية أن تسيّر من نصر الى نصر وأن تهاجم الروم فى
عقر دارهم وأن تصل الى القسطنطينية .

ولا عجب بعد هذا أن اتخذت بحريتنا العربية فى عهد ثورنا
المباركة من التاسع والعشرين من شهر أغسطس يودا لها تحتفل فيه
بما أوتيته من تقدم باهر وقوة ضاربة . وفى هذه الذكرى المفخرة
بالماضى واعتزاز بالحاضر وحافز للمستقبل .

الباب الخامس

غزوة الرضمين

غزوة الربضيين

٦٦ الربضيون هم سكان إحدى ضواحي قرطبة ، قاعدة بلاد الاندلس في حكم الامويين . كانت هذه المدينة عند فتح العرب لها في أكتوبر سنة ٧١١ قائمة على الشاطئ الايمن من نهر الوادي الكبير الذي يجرى الى جنوبها ، وكان على هذا النهر جسر قديم متهداع يصل المدينة بالضفة الجنوبية للنهر فرممه هشام بن عبد الرحمن ، ثاني ملوك الاندلس فساعد ذلك على اتساع المدينة وقام على تلك الضفة ربض سكنه عامة الشعب وصغار التجار من المولدين والنصارى . وقد ساعد على ازدهاره بالاهلين قربه من دار الامارة ومن المسجد الكبير ، وهما عند رأس الجسر من الشاطئ الآخر للنهر يفصل بينهما طريق واسع يسمى « المحجة العظمى » فانتقل الى ذلك الربض كثير من الذين تضرعهم أعمالهم الى الاختلاف الى دار الامارة ، أو تستدعيهم دروسهم الى مجاورة المسجد الكبير واشتهر بين سكانه جماعة من تلاميذ الامام مالك بن أنس . وجماعة من رجال الفقه ، وغيرهم من ذوى النفوذ.

ولم يلبث الربض أن ضم بين أهليسه أئمة الشرع ورجال الدين وأصحاب النفوذ وذوى الحاجات وفريقا كبيراً من عامة الشعب ، فصار

مركزاً هاماً للثقافة والسياسة ، وركنا من أركان المعارضة في عهد الحكم بن هشام ، ثالث ملوك بني أمية بالاندلس ، بل لعل المعارضة نبتت فيه ونمت واتسعت فروعها حتى شملت قرطبة نفسها . وكانت عنيفة ليس فيها كياسة ولا لباقة .

ولم تكن السياسة التي جرى عليها الحكم في ادارة شئون الدولة ، يبعث على الرضى والارتياح ، اذ كان - على ما وصفه المؤرخون - طاغية مسرفاً في البطش ، وكانت وسائله في الحكم منذ تسلم مقاليدته تثير النفوس وتبعث فيها روح النقمة والثورة ، فقد استبد بالشئون المالية فأثقل كاهل الشعب بالضرائب ، وولى على جبايتها جماعة من النصاري ، وحشد حوله الجند من المرتزقة والغرباء ، وقربهم اليه ، وأقامهم على حراسته ، فأثار بهذا جميعه سخط الخاصة والعامة .

وقد نشبت في عهده سلسلة من الثورات في حواضر البلاد كقرطبة وسرقسطة وطليطلة ، فكان يقمعها بعنف شديد ، ويهملها منها الثورة التي قامت في الربن الجنوبي من قرطبة والتي اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ،

ففي اليوم الثالث عشر من شهر رمضان من سنة ١٩٨ هـ (مايو سنة ٨١٤ م) أو من سنة ٢٠٢ (مارس سنة ٨١٨) كانت أسواق ذلك الوبض تعج بمن يختلفون اليها ، وكان التجار والصناع يتحدثون

فى المغارم الجديدة التى فرضها عليهم الحكم، وينذكرون حائقين أنه وكل بجبايتها الربيع ، رئيس حرس القصر، وكان هؤلاء الحرس من الصقالبة المسيحيين . ويسمى بهم المؤرخون « الصبيان الصقالبة » . وكان الربيع نفسه من غير المسلمين :

فى ذلك اليوم مر بالسوق أحمد بجند القصر من الحرس الصقالبي ووقف بدكان صيقلى طالبا الى صاحب الدكان أن يصقل له سيفه . فتناقل الرجل دون تلبية رغبة الجندى حتى عيل صبره : فاستل حسامه وأغمده فى صدر الصيقلى فاخرقه فمات لساعته . ومضى الجندى فى سبيله فاضطربت السوق واستفزت الجناية الفظيعة من فيها . وتناقل الناس الخبر فعم الاضطراب والبؤس كله .

وكان الحكم قد خرج فى ذلك اليوم للصيد فى جنوب العاصمة وكان الربنس الطريق الذى يسلكه فى عودته الى القصر فلم يكدا لاهلون يتبينون ركبه حتى تظاهروا فى صخب ينع عن الهزء والسخرية، فقبض حرس الملك الذين كانوا يحفون بالركب على عشرة من المتظاهرين وصابوهم فى الحال ، فكان ذلك سببا فى اندلاع ثورة جامعة . وأقفلت أسواق الربنس وتجمهر الصناع والتجار وانضمت العامة اليهم ، وتسليح القوم بما وصلت اليه أيديهم من مسدس وحرا ب وفؤوس : وانحدروا الى الجسر يحاولون اقعة عامه للوصول الى قصر الملك المعروف بقصر الرصافة ، وكادوا يقتحمونه لولا أن قام قائدان ماهران هما

عبيد الله بن عبد الله البلسى واسحق بن المنذر بجمع الجند من الفرسان الذين عشرا عليهم بقرطبة وقاما بحركة التفاف وهاجما المتظاهرين من المؤخرة فوق الدعر فى قلوبهم حين رأوا أنفسهم بين نارين ، واختلت صفوفهم ، ولم يلبثوا أن تبددت جموعهم ولاذوا بالفرار .

وهكذا نجا الحكم من غضب الامة . ثم انتقم من الربض شر انتقام ، فاباحه لجنده واطلق أيديهم فيه فقامت مجزرة كبيرة وجرى نهب ذريع وقتل الناس فى الشوارع وفى مفارق الطرق وفى البيوت مدة ثلاثة أيام . ثم أمر بإعدام ثلاثمائة سرى من سراة الربض وصلبهم ، وباجلاء جميع سكانه عن قرطبة ، وهدم الربض بحيث لا يبقى فيه حجر على حجر ، وأمر كذلك بأن يحرق الربض وأن يزرع .

٤. وابتدأت هجرة سكان الربض عقب صدور أمر الحكم ، أى فى أواخر شهر رمضان : فقصدت غالب الاسر التى أجليت عن الربض - وكان عددها فى نظر بعض المؤرخين العرب عشرين ألف أسرة - الى طليطلة التى عرفت بمعارضتها للحكم ومناهضتها لحكومة قرطبة ولكن سكانها كانوا لا يزالون يذكرون كيف بطش الحكم بهم فى « وقعة الخيرة » ، وقتل فى يوم واحد خمسة آلاف من رجالها . فخافوا أن يتعرضوا من جديد لغضب الحكم ويطشه ، وطلبوا من الربضيين الجلاء عن المدينة :

وقطع الربضيون رجالا ونساء وأطفالا بلاد الاندلس حتى انتهوا

الى الساحل فاجتاز بعضهم البحر الى ارض العدو، كما يسمون مراکش وطوحت الاقدار بالبعث الانحر الى أبعد من شواطئ أفريقيا الغربية وقد ف بهم ،صيرهم الى الشاطئ الشرقى ، وانتهى مطافهم فى البحر الابيض المتوسط الى الاسكندرية .

كان عدد الربضيين الذين انتهوا الى الاسكندرية يربو على العشرة آلاف فلم يأذن لهم الحاكم بالتزول . وقد ذكر بعض المؤرخين أنهم أقاموا فى مراكبهم ، وقال المقرئى أنهم نزلوا بالرمل . وكان التجار يذهبون اليهم بسلعهم فيبيعونها لهم . ولعلمهم لم يكونوا ليخرجوا الى المدينة ويستولوا عليها لولا اضطراب الامر ابامثد بمصر ، بل فى العالم الاسلامى بالشرق أثر النزاع الذى نشب بين الأميين والمأمون .

وقد وصل الربضيون الى الاسكندرية فى وقت كانت الفوضى ضاربة أطناها بمصر، فافلت زمام الامر من أيدي الولاة ، وكثر الثائرون عليهم . وتعددت الاحزاب ، واختلف الزعماء ، واشتدت الدعايات ، واضطرب حبل الامن فى المدن والقرى ، وتعرض المسافرون للنهب والسلب ، وإنصرف أصحاب الأمر والنهى الى تأييد نفوذهم : وأما الاسكندرية فقد صارت عرضة لهجمات العرب من قبيلتي لخم وجزام ، وكانتا فى حرب دائمة ، لا تتصالحان الا لتفرضا الضرائب على الشعب المحائر فى ذلك الموقف الشاذ :

أقام الربضيون اذن حيناً من الزمن فى مراكزهم ، يذهب اليهم
التجار فيبيعونهم سلعهم وما يتقوتون به . ولعلمهم كانوا ينزلون الى
الرمل ليستبضعوا ثم يعودون الى مراكزهم .

ويجب أن نذكر أن « الرمل » الذى قيل أنهم نزلوا فيه لم يكن
المكان المعروف بهذا الاسم اليوم . ولعله كان بين الميناءين الكبير
والصغير ، أوفى نهاية الميناء الكبير بالقرب من المنارة .

وجرى فى أحد الايام أن قصابا تشاجر مع أحد الربضيين ممن نزل
الى الرمل ليبتاع قوته فضرب الجزار وجه الربضى بكروش . فأثارت
هذه الفعلة الجماعة . وقرر الربضيون النار لصاحبهم بالاستيلاء على
المدينة ، وأخذوا يتحينون الفرصة الملائمة لتنفيذ مآربهم . ولم تلبث أن
سنتحت هذه الفرصة .

كان المطلب بن عبد الله الخزاعى والى مصر عن المأمون قد عين
محمد بن هبيرة حاكما على الاسكندرية ، فلم يذهب اليها ، واستخلف
عليها عمر بن عبد الملك الذى يقال له عمر بن ملاك . ولعل هذا
الانخير لم يحسن حكم المدينة ولم يستطع مغالبة القبائل الضاربة فى
أطرافها . وكانت تشن عليها الغارة تلو الغارة للنهب . وتلقى الدعر
فى قلوب الاهلين : فعزله المطلب وعين أخاه الفضل حاكما على
المدينة ، فكتب عبد العزيز بن وزير وكان ثائراً على المطلب مستأثراً

مجدينة تنيس وما حولها من مدن الساحل ، أنه كتب الى عمر بن ملاك يستفزه على حاكم الاسكندرية الجديد ، ويسأله أن ينتقم من علي المطلب وأن يدعو له بالاسكندرية .

ولعل الاسكندريين كانوا يتوقون الى حياة مستقرة ليعنوا بتجارة مدينتهم ويعملوا على تدعيم ازدهارها ونشاطها . أو أنهم ضنوا بها أن تصبح مسرحا للنوضى فتغاضوا عن دعوة عمر بن ملاك واستكانوا لحكم الفضل . فوئى عمر وجهه شطر الربضيين ودعاهم الى الانضمام اليه ومعاونته على اخراج الفضل من الاسكندرية .

وكان الربضيون قد ملوا حياة المراكب ، وتاقت نفوسهم الى سكنى المدينة . ورأوا كذلك أن الفرصة التي كانوا ينتظرونها للوثوب على المدينة والأخذ بثأر صاحبهم قد جاءتهم ، فلبوا دعوة عمر بن ملاك ، وهاجموا المدينة ، ولكن الاسكندريين حاربوهم وأجلوهم عنها وأرغموهم على العودة الى مراكبهم . وهكذا استقر الحكم للفضل بالاسكندرية .

ولكن حكم المطلب بالفسطاط كان مضطربا ، فلم يلبث أن عزل أخاه الفضل عن الاسكندرية بعد ثلاثة أشهر من ولايته على الشمر ، وولى عليه اسحق بن ابرهة فى شهر رمضان سنة ١٩٩ ثم عزله وولى أبا بكر المعافى .

وفى غضون هذا قامت حرب بين المطلب وبين السرى ، وكان هذا الأخير وضع الأصل ، جاء مصر فى عهد الرشيد ، ولكنه عرف كيف ينتهز الفرص حين قامت الحرب بين الأمين والمأمون . فتقدم الصفوف بمصر ودعا للمأمون فيها طمعا فى أن يوليه عليها . ولما ولى المأمون المطلب على مصر اعتصم السرى بالصعيد وتولاه لنفسه . ثم زحف على القسطنطين واستولى عليه واصر المطلب ، وأصبح بذلك حاكم مصر .

ولعل هذه الحوادث جرأت عمر بن ملاك على الاستئثار بالاسكندرية بعد أن تظاهر بالدعوة فيها لعبد العزيز بن وزير الذى كان على تنيس فلم يكده السرى يتغلب على المطلب حتى وثب عمر بن ملاك على أبي ذكر المعافى ، حاكم الاسكندرية ، فانخرجه منها . واستعان على ذلك بالربضيين الذين بادروا لمعاونته متظاهرين بتعصيده مسرين أملهم بالفوز بالمدينة لأنفسهم .

وعندما استقروا بالاسكندرية عاثوا بهافسادا وارتكبوا من الموبقات ما جعل عمر يأمرهم بالعودة الى مراكزهم . وعندئذ كشف الربضيون القناع عن مقاصدهم وظهروا حقيقة نواياهم الا أنهم أبوا الخضوع لامر الحاكم ؛ واعتصموا بالمدينة وشرعوا يعملون على الاستيلاء عليها . وقد أسعفهم الحظ لبلوغ أربهم .

كانت بالاسكندرية عناصر قوية تستطيع أن ترجح كفة من توازره فقد كانت فيها جماعة اللخميين . وكانت لحم أقوى القبائل العربية التى نزلت بالاسكندرية وأعزها جانبا . وكانت فيها طائفة الصوفية . ولعلها المرة الأولى التى تذكر فيها الصوفية فى تاريخ الاسلام . وكانت الصوفية بالاسكندرية « تأمر بالمعروف وتعارض السلطان فى حكمه » كما يقول المقرئى . وكان يترجم هذه الطائفة رجل يدعى أبا عبد الرحمن

الصوفى ، وقيل أن هذا الصوفى خوصم الى عمر بن ملاك فى امرأة فحكم عليه . فاحفظه ذلك على عمر ، وسعى الى الربضيين ، وألف بينهم وبين اللخميين ، فتكونت قسوات متحالفة شديدة البأس تناهض حاكم الاسكندرية .

واستولى الربضيون واللخميون على المدينة ، وحاصروا الحاكم فى قصره . ولما رأى عمر وفرة عدد محاصريه خشى أن لا يمنعه قصره دونهم ، وأن لا يحميه دون وصواهم اليه . ونخاف على أولاده ونسائه بطش الثائرين وقسوتهم . فاغتسل وتحنط واستعد للموت ، وأمر أن يدلى من أسوار النصارى فلم يكده يصل اليهم حتى أخذته سيوفهم وقتلته ، وتتابع الحـكـام على الاسكندرية حتى ذكر المقرئى أسماء خمسة منهم تولوها فى شهرين اثنين ، وكان الربضيون يفتكون بهم الواحد تلو الآخر .

ولكن الخلاف دب فى صفوف المتحالفين ، ولعل سببه تعيين حاكم على الاسكندرية . وكل فريق يحاول تنصيب حاكم من أشياعه فتخاصموا ، وكانت الغلبة للربضيين فانهمزمت لخم ، واستقسل الاندلسيون بحكم الاسكندرية ، وولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى ، فاساء الحكم وانتشر الفساد ، وسادت الفوضى ، وكثر النهب والقتل ، واستفحل الأمر حتى ضاق الربضيون ذرعاً بالحاكم للذى عينوه فعزلوه ، وعينوا رجلا منهم يعرف بالكنانى ، ولعله — وهو من أهل الاندلس — كان

يخشى منهم على المدينة وساكنيها؛ لأنه كان يقول أن خراب الاسكندرية قد يأتي من الاربعين مركبا الراسية في ثغرها ومن فيها ؛ وان هؤلاء مسلمون وليسوا بمسلمين . فقد كان حكم الربضيين للاسكندرية شراً وفساداً ، فلم يكف يستتب لهم الامر حتى اندفعوا لقتال العرب فيها ، فتغلبوا على اللخمين كما ذكرناه ، ثم ناوأوا بني مدلج وانتصروا عليهم وأجلوهم عن المدينة . وثار الاسكندريون غير مرة على هذا الفساد فأحمد الربضيون الفتنة في مقتلة عامة لم تبق ولم تذر ، وذهب ضحيتها خلق كثير . ولم يفرقوا في ازهاق النفوس بين المسلمين والنصارى واليهود ، وأحرقوا أحياء من المدينة بأكملها ، واضطر بطريرك الاقباط مرقس الثاني الى الهرب من المدينة ، والتجأ الى شرق الدلتا حيث كان الاقباط كثيرى العدد، واتصل بعبد العزيز بن الوزير الجروى الذى كان مستقلاً بحكم تلك المنطقة وشكا اليه حالة الاسكندرية وفساد الحكم فيها وقيل أن البطريرك قضى نحبه متأثراً بما شاهده فيها . ولعل عبد العزيز شاء أن يرضى الاقباط المنتشرين بمنطقته ، أو أنه شاء أن يثار لعمر بنى ملاك عامله على الاسكندرية فسار اليها فى شهر أغسطس سنة ٨١٦ على رأس خمسين الف مقاتل :



يتصل تاريخ الربضيين بالاسكندرية بمحدث النضال الطويل الذى قام بين السرى وعبد العزيز وبين أبنائها من بعدهما . وقد أخذوا لهم شريعة

أن يؤازروا المنتصر وينضموا إليه، وأفلحوا في هذه السياسة واستطاعوا بواسطتها الاحتفاظ بسيادتهم على المدينة .

سار عبد العزيز اذن الى الاسكندرية وأقام الحصار عليها ، فاتصل الربضيون بالسرى وأظهروا نخضوعهم له ، وأعادوا بنى مـالـج الى الاسكندرية ، بعد أن أجابوهم عنها امتثالا لامره ، وطلبوا مساعدته للدفاع عن المدينة ورد محاصريها . ولعل السرى خاف أن يستفحل أمر عبد العزيز ويشهد اذا استولى على الاسكندرية فجند جيشاً عظيماً وارسله الى تنيس ليستولى عليها ، فلم تكد تصل الى عبد العزيز أنباء حملة السرى حتى رفع الحصار عن الاسكندرية وأسرع عائداً الى تنيس ليدافع عن قاعدة حكمه .

وطالت الحروب بين السرى وعبد العزيز ، ويقال أن هذا الأخير كان يكتنز ذهباً كثيراً ، وأنه دفنه في بعض الحفر ثم قتل الفعلة الذين استعسبهم في ذلك حتى صار لا يعرف أحد غيره موضعه . وكان ينفق من هذا الذهب المركوز في شراء الأعوان وحشد الانصار ، وبواسطته استمال اليه الربضيين بالاسكندرية فانقلبوا على السرى ، وناصروه ، ولكنهم لم يلبثوا أن تغيروا على عبد العزيز حين أرسل المأمون الى السرى نخلعة الولاية على مصر في شهر شعبان سنة ٢٠١ هـ (مارس سنة ٨١٧ م) فأعاد عبد العزيز الكرة على الاسكندرية .

وقد ذكر المقرئ أن عبد العزيز حاصر الاسكندرية بعد ذلك أربع مرات ، وأنه في المرة الرابعة أقام عليها الحصار ونصب المجانيق سبعة أشهر ، أي من أول شعبان سنة ٢٠٤ إلى سلخ صفر سنة ٢٠٥ وأنه في آخر صفر هذا ، أي في ١٤ من أغسطس سنة ٨٢٠ م . أصيب عبد العزيز بفلقة من حجر مجانيقه ثبات ، وفنى كذلك غريمه السرى نحيبه بعده بثلاثة أشهر .

واستتبع الحرب سيرها بين ابني السرى أبي النسر محمد وعبد الله وبين علي بن عبد العزيز ، واستفحل أمرها بالرغم من تدخل أصحاب الرأي فيما بينهم ، حتى أرسل المأمون إلى مصر عبد الله بن طاهر ؛ وكان من نخيرة قواده . فتغلب على ابني السرى ، وانضوى على بن عبد العزيز تحت لوائه وعاهده على الطاعة . وهكذا استتب الأمر لعبد الله بمصر ، ولم يبق أمامه غير استرداد الاسكندرية من أيدي الربضييين .



بينما كانت تلك الأحداث تجري بمصر كان الربضييون يستقرون بالاسكندرية وينشئون فيها حكما ، إذا كنا نجهل اليوم نظامه فإننا نعرف أنهم كانوا يختارون للولاية عليهم رجالا ممن يقبلون فيهم الشجاعة والاقدام وحسن الرأي . ولعل هذا الاختيار هو الذي حمل بعض المؤرخين على

اطلاق اسم الجمهورية على شكل نظام الحكم الذى أقاموه .

ورأى عبدالله بن طاهر أن أمارته على مصر لاتستكمل شروطها اذا لم يستول على الاسكندرية ويطرد الربضيين منها ، بعد أن استقلوا بها وفصلوها عن جسم الولاية المصرية . فسار إليهم بجيش من أهل نخراسان فى مستهل صفر سنة ٢١٢ هـ . (مايو سنة ٨٢٧ م .) فأقام عليها الحصار عشرة أيام . فخرج إليه الربضيون يعلنون استسلامهم .

فقبل مصالححتهم على أن يغادروا المدينة الى حيث يشاءون على شرط أن لا ينزلوا فى بلاد خاضع للدولة العباسية . واشترط عليهم أيضاً أن لا يستصحبوا احداً من اهل مصر فى مراكبهم ، وان لا يأخذوا عبيدهم ، فرضوا بشروطه .

وقبلى مغادرتهم الاسكندرية أرسل عبدالله بن طاهر من فتش مراكبهم فوجد فيها جمعاً من الذين اشترط عليهم أن لا يخرجوهم معهم فأمر باحراق المراكب . ولكن الربضيين استسمحوه واعدين باحترام شروطه السابقة إذا قبل ردها اليهم ، ففعل هـ

وهكذا رحل الربضيون عن الاسكندرية واستعادت مصر وحدتها تحت امرة عبدالله بن طاهر واليها عن المأمون هـ

هذه قصة غزوة الربضيين للاسكندرية . واذا كان لابد لكل قصة من خاتمة فقد كانت خاتمة هذه القصة، أن انتقل الربضيون من الاسكندرية الى جزيرة أقريطش (كريت) ، وكانت تابعة للإمبراطورية الرومانية فزلوا فيها واحتلوا أكثر أجزائها وأحرقوا مراكبهم ايذانا بأنهم لن يرحوها .

وقد أقام الربضيون باقريطش ١٣٥ سنة . فنشروا فيها الاسلام ، وأسسوا المدن ، وانشؤوا قاعدة لحكمهم مدينة الخندق وهي التي صارت تدعى بعد ذلك « قنديه » واشتهروا بغاراتهم على جزر بحر ايجيه وعلى شواطئ بلاد اليونان حتى كادوا يعطلون تجارتها . وقد صارت الجزيرة في عهدهم مباءة لأعمال اللصوصية والقرصنة، كما ازدهرت فيها النخاسة حتى صارت سوقها فيها أعظم أسواق الشرق وصارت تمون الشرق كله بالرقيق .

فلا عجب إذا ضاقت حكومة بيزنطية ذرعا بالربضيين . ونخاطب أحد أباطرة الروم عبد الرحمن الثالث - أول خلفاء بني أمية بالاندلس - في أمرهم فأجابه عبد الرحمن أنهم ليسوا من رعاياه فلا يملك أمرهم ولا يستطيع ردهم .

وأخيراً نشط نيقوفور فوقاس الذي عرف بحروبه مع سيف الدولة، وكانت العرب تسميه فوقاس ، فأنشأ أسطولاً عظيماً ، وهاجم

به الجزيرة ، وكان عليها حاكم اسمه العزيز ، وهو آخر أمراءها ،
فاستولى فوقاس على الجزيرة ، وتغلب على الربضيين ، وأسر العزيز
ونقله الى القسطنطينية حيث اقام الى وفاته ونشأ ابنه « النحاس » فيها
ونخدم الامبراطورية وفي فيها .

أما مسلمو الجزيرة فقد رحل عنها من رحل واعتنق النصرانية
من اعتنق .

وهكذا انطوت صفحة من صفحات التاريخ كان فيها إثم وشر ،
وكان فيها فروسية وبطولة .

الباب السادس

الصلبيون يحاصرون الاسكندرية



صالح الدين الزبيري

الصلبيون يحاصرون الاسكندرية

بينما كانت الدولة الفاطمية تشرف على نهايتها في مصر نشب صراع عنيف بين شاور وضرغام على تولي الوزارة خصوصاً بعد أن أصاب الخلافة والملك فيها الضعف والوهن الى حد أن خرج أمر تولي الوزارة من يدى الخليفة وصار يتولاها الذى يظفر بخصمه . وكان شاور يتولاها ولكن ضرغام تغلب عليه فهرب من وجهه ولجأ الى نور الدين صاحب دمشق الذى وجه معه جيشاً لينصره على غريمه وولى نور الدين على الجيش أسد الدين شيركوه بن شادى الذى اصطحب ابن أخيه صلاح الدين . فسار هذا الجيش مع شاور الى مصر وتغلب على جنود ضرغام وأعاد شاور الى دست الوزراء (مايو سنة ١١٦٤ م .)

وكان شاور قد وعد نور الدين بأن يدفع بعد توليه الوزارة جميع نفقات الجيش الذى سار معه من دمشق ، وأن يتنازل عن جزء من الاراضى المصرية . فلما طالبه شيركوه بوفاء الوعد امتنع شاور فأحتل شيركوه بلبليس ووضع يده على مديرية الشرقية حتى يفى شاور بوعده . فطلب شاور مساعدة الافرنج فى فلسطين ليطرد جيش شيركوه من مصر . فأسرع الملك عامورى (امورى) الى تلبية نداء شاور أملاً بتدعيم الملك الناشئ فى الشرق باسم الصليبيين ، بعد بسط الحماية على مصر .

ولكن عامورى بعد أن وصل الى مصر واشترك فى القتال ضد شيركوه جاءته الانباء عن غزو قوات نور الدين فى دمشق لمملكته — وهى خطة نفذها أسد الدين لحمل عامورى على الارتداد عن مصر ، وقد فعل بعد أن أتفق مع شيركوه على أن يغادر الجيشان — جيش نور الدين وجيش الافرنج — مصر . وهذا ماجرى .

ولكن مصر فى عهد الفاطميين المشرف على الزوال كانت تطمع شيركوه فيها . فعاد بجيشه سنة ١١٦٧ ، فاستغاث شاوربالافرنج فهبوا لنجدته وجرت مواقع بين الفريقين اضطرت شيركوه الى جعل النيل فاصلا بينه وبين جيش المصريين .

ثم انحدر شيركوه الى الدلتا واستولى على الاسكندرية . وكان الاسكندريون يعارضون سياسة شاور التى ترمى الى الاستعانة بالافرنج ضد شيركوه وسماحه لهم بالتدخل فى شئون مصر الداخلية وتوليها الوزارة فى حماية مقاتليهم . فناصروا شيركوه .

وأحس عامورى بخطورة الموقف فجمع مجلسا عسكريا ضم القواد من الافرنج والمصريين وتقرر ضرب الحصار على الاسكندرية من ناحية النيل بواسطة سفينة كبيرة تقف عند مخرج الخليج من فرع رشيد ، ومن ناحية البر بجنود عامورى الذين يعسكرون بين دمنهور وتارويج ، ومن جهة البحر بواسطة اسطول بيزا .

وهكذا انقطع عن الاسكندرية كل مورد ، فشاء شيركوه حمل

الافرنج على فك الحصار من ناحية البر فقام بمحاولة جريئة ، وهى أنه ولى ابن شقيقه صلاح الدين على المدينة وترك له الف جندي للدفاع عنها ثم خرج من الاسكندرية من ناحية مريوط ومعه بقية الجيش واخترق الصحراء ، وظل ملتزماً الشاطئ الغربى من النيل وهاجم المدن والقرى حتى وصل الى قوص وأقام الحصار عليها . وقد فعل ذلك أملاً بأن يفك الافرنج الحصار عن الاسكندرية للحاق به ، وأملاً بالفوز بما يمون به الثغر .

ولكن الافرنج وجنود شاور ظاوا يشددون الحصار على الاسكندرية ووصلت نجادات الى الصليبيين الذين أخذوا يضعون آلات للهجوم كما بنوا يربجا عالياً ليراقبوا منه ما يجرى فى المدينة . ولبناء هذا البرج قطعوا جميع الاشجار التى كانت فى الحدائق المنتشرة حول الاسكندرية مما أغاظ أثرياءها وتجارها . فتمد خربت حدائقهم وأصبحت مدينتهم عرضة للهجوم والشرب والدمار .

وشعر صلاح الدين بأن سكان الاسكندرية ، على مناصرتهم له ، أخذوا يملون هذه الحالة فأرسل الى عمه فى الصعيد يستدعيه . ثم جمع سراة المدينة وخطب فيهم بطريقته القوية التى عرف بها فيما بعد ، وأقنعهم بأن يصمدوا حتى يعود عمه شيركوه .

وقد عاد شيركوه فى الحال ، وأرسل أحد الاسرى من نبلاء الافرنج يعرض على الملك عامورى فض الموقف بأن تنسحب القوات الصليبية وقوات شيركوه من مصر وأن يتم تبادل الاسرى .

فقبل عامورى العرض ، نحصوها أنه صار يخشى على مملكته
فى فلسطين وسوريا من أن تصاب بالضعف بعد طول غيابه عنها .

وهكذا تم الصلح وفتحت الاسكندرية أبوابها لفرسان الافرنج
الذين طافوا فيها كزائرين وشاهدوا معالمها وآثارها .

وقد دخل شاور الاسكندرية فى ٤ أغسطس سنة ١١٦٧ ، وشاء
أن ينتقم من أعيانها الذين ناصروا شيركوه . ولكن صلاح الدين لفت
نظر الملك عامورى الى ذلك فأرسل الى شاور بأن يمتنع ، وذكره
بشروط الصلح ، فامتنع شاور .

الباب السابع

حصار آخر

حصار آخر

تمر الايام سريعة بعد ذلك الحصار الأول . فيقتل شاور ويتولى شيركوه الوزارة ثم لا يلبث أن يموت فيتولاها صلاح الدين . ويموت الخليفة العاضد في ١٣ سبتمبر ١١٧١ فتزول بموته خلافة الفاطميين في مصر ويتولى صلاح الدين الملك ويؤسس الدولة الايوبية .

على أن فلول الدولة البائدة لم يقباوا هذا الرضع ولم يرضوا عن زوال ملكهم دون أن يقوموا بمحاولة لاستعادته . وقد دبروا فعلا في شهر ابريل سنة ١١٧٤ مؤامرة حبكوا أطرافها في القاهرة واشترك فيها كثير من الفواد المصريين والسودانيين ، ثم اتصلوا بالملك عامورى في القدس ، وبملك صقلية جيوم الثانى . وكان من مصلحة الافرنج في سوريا أن لا تنضم مصر الى دمشق ، وأن تظل الشيعة تحكم مصر كما كانت في عهد الفاطميين . فأرسل عامورى الى القاهرة رسولا بمهمة رسمية لدى صلاح الدين ومهمة سرية لدى الثوار . ولكن صلاح الدين علم بهذه المهمة السرية من أحد بجواسيسه في سوريا فانتدب نصرانياً من رجاله الذين يثق بهم لمرافقة رسول الملك عامورى . وقد افنى الرسول الى مرافقه بمهمته وأنحبار المؤامرة فقبض صلاح الدين على المتآمرين وهكذا فشلت المؤامرة .

وكان الاتفاق قد تم بين المتآمرين وجيوم الثانى ملك صقلية، وكان صاحب أكبر أسطول فى البحر الابيض المتوسط على أن يرسل هذا

الاسطول لمحاصرة الاسكندرية . ولم يبلغ ملك صقلية خبر اكتشاف المؤامرة والايقاع باصحابها فتسارعت بتجهيز أسطوله وارساله الى الاسكندرية فوصلها في ٢٨ يولييه سنة ١١٧٤، وفي رواية في ٧ سبتمبر من السنة نفسها .

وقد وصف محمد بن قاسم الزويرى في كتابه المخطوط « الامام بما جرت به الاحكام للقضية في واقعة الاسكندرية » هذه الواقعة فقال أن طلائع الاسطول الصقلي وصلت الى الاسكندرية ظهر يوم الأحد السادس عشر من ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ . ثم لم يزل متواصلاً متكاملاً حتى العصر . وكان ذلك في حين غفلة من الموكلين بالنظر . ولكن أمره كان معروفاً إذ علم بمخادرتة صقلية ، وأن لم يكن يعلم أنه يقصد الاسكندرية .

وكان الاسطول يتألف من نحو ثلاثمائة سفينة تحمل خمسين ألف مقاتل :

وقد استطاع الصقليون أن ينزلوا يوم الاثنين الى شاطئ الاسكندرية بخيلهم ومعداتهم للحصار ، وان يتجمعوا خارج أسوارها في معسكر كان ينتظم ثلاثمائة خيمة ثم نصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير تضرب بحجارة سوداء استصحبوها من صقلية .

وكان صلاح الدين معسكراً بمدينة فاقوس فارسلت اليه أخبار الحملة على جناح الحمام الزاجل ، فأرسل الى الاسكندرية مدداً من جنده وكانت هذه الامداد تصل يوماً بعد يوم من البحيرة وبرقة .

ودار القتال في يومى الاثنين والثلاثاء بين الصقليين وبين الجنود

المعسكرين بالاسكندرية : وتقدم الصقليون من أسوار المدينة وأخذوا يضربونها . ولكن الجنود المدافعين عن الاسكندرية والمؤلفين من الاتراك والاكراد والكنانيين يظاهروهم أهل الثغر على عاداتهم فى الدفاع عن مدينتهم فتحو الأبواب فجأة وخرجوا لملاقاة العدو ونشبت معركة استبسل فيها الاسكندريون ولم يكذب يأنف عصر يوم الاربعاء حتى كانوا قد أمعنوا بالصقليين قتلا وضربا وردوهم عن مدينتهم ولم ينج منهم الا من نزع ملبسه ورمى بنفسه فى البحر ليلحق بالسفن . ولكن جنود الاسكندرية البواسل لحقوا بهم فى الماء وأحرقوا العديد من سفنهم وغنموا خيامهم ونحوولهم ومعداتهم .

وغادرت البقية الباقية من الاسطول الكبير مياه الاسكندرية صباح يوم الخميس عائدة الى صقلية بالذل والانكسار .

الباحل للشك

غزوة القبارصة

غزوة القبارصة

إذا كانت قوات الصليبيين قد غادرت سوريا سنة ١٣٠٣ فأنها لم تخرج من الشرق لأن المالك « جى دى لوزينيان » كان قد استولى على قبرص فى مايو سنة ١١٩٢ وأسس فيها مملكة توارثها أبناء هذه الأسرة من بعده حتى سنة ١٤٨٩ حين تنازلت الملكة « كاترين » ، وكانت من أصل بندقى عن الجزيرة الى جمهورية البندقية .

وكانت سفن هذه الدولة تشن الغارات على السواحل المصرية والسورية ، وأشهر هذه الأحداث إغارة القبارصة على الاسكندرية فى ٩ اكتوبر سنة ١٣٦٥ .

ولدينا مصدران هامين اعتمدهما جميع من كتبوا تاريخ هذه الغزوة أحدهما عربى مخطوط يسمى « الامام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية » لمحمد بن قاسم النويرى السكندرى . وكان أديباً وشاعراً على طراز أدباء عصره ، وقد شهد الغزوة ودون أخبارها وفصل حوادثها ، والثانى كتاب باللغة الفرنسية وعنوانه « الاستيلاء على الاسكندرية أو سيرة الملك بيمير الاول دى لوزينيان » ، وهو ملحمة شعرية نظمها « جيوم دى ماسار » وروى فيها ما سمعه من الفرسان الذين عادوا الى فرنسا بعد ذلك اشتراكهم فى الحملة ، وبخاصة « جان دى رنس »

الذى شهد الواقعة وأقام بعدها فى قبرص وصحب الوفد الذى انقذه ملك قبرص لاجراء مفاوضات الصلح بالقاهرة : وطبع هذا الكتاب فى جنيف سنة ١٨٧٧ . وسنحاول فيما يلى أن نوفق بين النصين والروايتين .

وأما الأسباب التى دعت « بير لوزنيان » ملك قبرص الى القيام بهذه الغزوة فقد لخصها النويرى فيما يلى :

السبب الأول - منع السلطان صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك الناصر قلاوون سلطان الديار الشاميه سنة ١٣٥٣ النصارى من العمل فى دواوين الحكومة إلا اذا اعتنقوا الاسلام : وأما الذين بقوا على نصرانيتهم فيلبسوا الثياب الخشنه ويتصرفون اكمام أثوابهم وأذيالها ويصغرون عمامتهم ويركبون الحمير على شق واحد . . : فامتثل جميع النصارى لذلك :

الثانى - قيل أنه لما ولى الملك بطرس عرش قبرص بعد موت أبيه أرسل الى الملك الناصر حسن يسأله أن يرسم له بالتوجه الى مدينة صور ليجلس على عمودها كعادة كل من تملك جزيرة قبرص ليصبح له نفاذ حكمه فى رعيته . ولكن السلطان احتقره ومنعه من الدخول الى صور :

الثالث - وصلت سنة ١٣٦٣ الى الأسكندرية سفينة للأفرنج وأخذت

تعبث في الثغر فخطفت ما قدرت عليه بين المينائيين الشرقي والغربي ، ثم
اشتبكت مع سفينة تركية قادمة الى الاسكندرية وعليها بعض التجار
المسلمين حتى اضطروا الرماة المسلمون الى الخروج في قوارب وابتعدوا
السفينة الى خليج السلسلة حيث أرسى بالقرب من الباب الأخضر .
فاتصل الأمير سيف بلاط نائب السلطان بالأسكندرية بقناصل الافرنج
المقيمين بها للوقوف على أمر هذه السفينة فاتصل القناصل بها وعرفوا
أن من فيها يريدون مؤونة من الأكل والشرب . ثم يرتحلون بسفينتهم
فارسل اليهم الحاكم ما طلبوه ، فغادرت السفينة ميناء الاسكندرية
ولكنها شاهدت أمام أبي قير سفينة قادمة من الشام فوثب رجالها
عليها واستولوا على ما فيها من البضائع والقوا برجالها في خليج أبي
قير ومضوا بها .

الرابع - هجم غراب (سفينة) على الجزيرة المقابلة لرشيد وأسر
رجالها خمسة وعشرين من سكانها وحدثت معركة بين رجال السفينة
وأهالي الجزيرة انتهت بفرار المعتدين .

الخامس - وصلت في ١١ يونيو سنة ١٣٦٣ الى أبي قير ثلاث
سفن وهاجم رجالها المدينة وأسروا ٢٥ نفر آمن سكانها ما بين رجال ونساء
وصبيان وأخذوا غنائم كثيرة ومضوا بهم الى مدينة صيدا حيث افتداهم
المسلمون وأعادوهم الى أبي قير .

السادس — كثرت اعتداءات القراصنة على ثغر أبي قير واشتباكهم مع الأهالي :

السابع — قتل العوام بالاسكندرية بعض من بها من البنادقة :

أما « ما شار » فيقول أن بيير دي لوزينيان أحس منذ حداثة سنه برغبة في استعادة دولة القدس وأن والده طالما نهاه عن ذلك فلم يرعو، وأنه بعد أن ولي الملك سافر الى اوربا وطاف في أنحائها ولقى وعوداً لم يف أصحابها بها . وأخيراً استطاع أن يقنع جمهورية البندقية بأن تملكه ببعض سفنها ثم أبحر في ١٢ من يونيو سنة ١٣٦٥ . قاصداً الى الشرق :

وكان للملك مستشار اسمه « برسفال » من مدينة « كولونيا » وكان قد مكث طويلاً بالأسكندرية عندما أسر فيها . فوصفها له بأنها مدينة آهلة بعدد كبير من الناس حتى ليجتمع بميادينها في بعض الأحيان مائة ألف رجل . ولكن هؤلاء الناس لا يعرفون أساليب الحرب ويهربون إذا اشتد القتال ، وهم يعيشون حياة رغدة تاركين الأمور الى الأقدار تقضي في مصيرهم بما تشاء ، ويوجد بالقرب من المدينة ميناء يسمونه الميناء القديم يفصله عن المدينة ميدان فسيح جميل ، وهذا الميناء ضروري للمدينة ومن السهل مهاجمتها من هذه الجهة فتؤخذ وتحرق .

وقد أخذ الملك برأى مستشاره وأمر السفن بالسير الى الاسكندرية ٥

وكانت السماء صافية الاديم والبحر هادئا عندما أشرف الأسطول
على الاسكندرية عصر يوم الخميس ٢١ من محرم سنة ٧٦٧ هـ .
(٩ اكتوبر سنة ١٣٦٥ م .)

كان على الاسكندرية فى ذلك العهد الامير صلاح الدين خليل بن
عوام ولكنه كان يؤدى فريضة الحج ، وكان ينوب عنه على المدينة
نائبه الامير جعفره ولم يكن على شىء من الدراية فى شئون الحرب ٥

وفى صباح يوم الجمعة خرج الاسكندريون الى خارج الأسوار
وهو المكان الذى يواجه الجزيرة التى تقوم عليها المنارة (فاروس)
والتي تفصل بين المينائين الشرقى والغربى . وانضم اليهم العربان من
كل صوب يحملون أسلحتهم ، وهى تتألف عادة من السيوف والرماح
والنبال . وسرت روح الحماس بين تلك الجماهير الحاشدة خارج السور .
ونخرج نائب الحاكم لملاقاة العدو على رأس تلك الجموع فنصحه
بعض المغاربة بأن يعود الى المدينة ويأمر الجماهير بالعودة الى داخل
الأسوار ويتحصنوا وراءها— وكان للاسكندرية ثلاثة أسوار أحدها داخل
يحيط بالمدينة والثانى خارجى يواجه ماحولها ومن يأتى اليها والثالث وسط
بينهما— لأنهم لن يستطيعوا مقابلة العدو على هذه الحالة. فأبى نائب الحاكم الأخذ

بهذه النصيحة لأنه ظن أن بإمكانه الحيلولة دون نزول الافرنج إلى الساحل .

وتقدمت سفينة كبيرة نحو البر فتصدت لها جماعة من المغاربة وخاضوا في الماء الضحل وناوشوا من فيها وامسكوها بأيديهم وطلبوا من الزرايين النار ليحرقوها ولكن الاضطراب كان يسود تلك الجموع غير المنظمة بحيث لم يلب أحد هذا الطلب فاستعجلوا النار فرموا اليهم بمدفع فيه نار هزيلة فوقع في الماء وانطفأ . فالتهم المغاربة بجنود العدو وتضاربوا بالسيوف فتغلب القبرصيون عليهم ودخلت سفن الافرنج الميناء وأنحدوا ينزلون الى البر في نظام رائع كان يعوز المدافع عن الاسكندرية ، وكانوا يلبسون الخوذ والدروع في حين كانوا المدافعون « لحما على وضم » كما يقول النويرى . وهكذا نجد أن الفريقين لم يكونا متكافئين فلا عجب اذا تغلب الافرنج على الاسكندريين فنفروا بعد أن قتل منهم من قتل ، وبعد أن تكبدت جيشهم في الجزيرة وخارج أبواب المدينة ، وبعد أن كتبوا في دفاعهم عن مدينتهم صفحة من صفحات البطولة الفردية الخالدة نوه النويرى ببعض منها ، مثل دفاع جماعة من الجند عن رباطهم بالجزيرة خارج باب البحر ، فقد رموا العدو بالنبال حتى نفدت فانحدوا يقاتلون حجارة النوافذ ويقذفون بها حتى نفدت أيضاً . وعندئذ اقتحم القبارصة عليهم الرباط وذبحوهم ،

وقال النويرى أن دماءهم جرت من ميازيت الرباط « كجرى الأمطار حين أبانها منها » .

وأسرع من بقى من المدافعين عن المدينة ومعهم نائب الحاكم الى دخولها من باب الخوخة الواقع فى الطرف الآخر من المدينة ..

وأخذ القبارصة يعالجون أبواب المدينة حتى وجدوا منفذا من باب الديوان — ويسميه « ماشو » باب الأفايه — فاخترقوه ودخلوا المدينة . فجرى هرج فيها وتولى الذعر الأهلى فتركوا منازلهم وتجارهم وهربوا من أبواب سدره والزهرة ورشيد . فمن خرج من الباب نجا ومن لم يخرج أدركه الافرنج وقتلوه .

ولم يكفد يتم استيلاء العدو على المدينة حتى بادر بدير لوزينيان الى تنظيم شئونها فوضع حرسا من جنوده على الأبواب وقصد الى تدمير قنطرتين على الخليج ليحول دون وصول المدد من القاهرة ولكن الجموع الغفيرة التى كانت قد خرجت من الاسكندرية هاجمته وحالت دون ذلك :

وعقد الملك فى اليوم التالى مجلساً مع ضباطه فأشار عليه الجميع بوجوب الجلاء عن الاسكندرية لأنه ليس لديه العدد الكافى من الجنود للدفاع عنها عندما يصلها المدد من القاهرة ؛ وهو وشيك الوصول :

ولما شاع ذلك بين الجنود ضعفت هممهم وغارت عزائمهم : وعاد الكثير منهم الى مراكزهم عصر ذلك اليوم - السبت - ولكن بعد أن أمعنوا في المدينة نهباً وسلباً وتدميراً ، وبعد أن نقلوا جميع ما استطاعوا نقله من خيراتها الى سفنهم . وهكذا لم ينج من أعمال التخريب فنادق تجار الافرنج أنفسهم من البنادقة والكتلانين والجنوبين ، كما حملوا الى سفنهم كل مارأوه من غال وثمين ، وقد قيل أنهم أخذوا باب المنارة ؛ وكان تحفة فنية بارعة .

وكما أمعن الافرنج في النهب والسلب أمعنوا كذلك في التمسك والاسر . وقد بلغ عدد الأسرى الذين نقاؤهم الى سفنهم خمسة آلاف من سكان الاسكندرية بين مسلمين ويهود ومسيحيين شرقيين ، ووزعوا أكثرهم على ملوك الدول المسيحية ، ولم يرجع منهم إلا القليل ممن افتدوا بعد المفاوضات التي طال أمرها بين مصر وقبرص .

وظل الافرنج في سفنهم الراسية بميناء الاسكندرية حتى يوم الثلاثاء ١٤ من اكتوبر سنة ١٣٦٥ . وكانوا قد ثيقتوا أنهم لن يستطيعوا تحقيق حلمهم بالاحتفاظ بالمدينة . ورأوا من بعيد طلائع الجيش المصري تصل الى مشارف المدينة لتجديتها فاصدر « بيار لوزينيان » الأمر بالرحيل ففك البحارة الحبال ونشروا الأشرعة وأبحروا قاصدين قبرص .

كانت هذه الحملة فاتحة عهد الانحطاط الذي طرأ على الإسكندرية

وران عليها حيناً من الزمن ؛ وكان كذلك ايذاناً بتمدهم -ور مملوكه
« لوزينيان » بقبرص ؛ فقد أخذت دولة المماليك بمصر توالى الغارات
على الجزيرة وفرضت عليها الجزية ؛ وظلت تتقاضاها منها حتى بعد
زوال ملك آل « لوزينيان » عنها وانتقاله الى البندقية ، حتى الفتح
العثماني .



السيد محمد كريم
حاكم الاسكندرية
حين وصول الحملة الفرنسية
استشهد في ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨

الباب التاسع

نزول القوات الفرنسية
في الاسكندرية

نزول القوات الفرنسية في الاسكندرية

كانت الاسكندرية الشرفة التي يطل منها الشرق على الغرب ،
والباب الذي يلج منه الغرب الى الشرق. وقد صادق هذا القول الأخير في
الحملات التي وجهت الى مصر خلال القرن التاسع عشر . وكانت
أولها حملة نابليون على مصر .

ان مركز مصر الجغرافي ووقعها في ملتقى طرق ثلاث قارات
هو الذي اطمع الغزاة فيها : وكان نابليون يقصد من حملته على مصر
القضاء على الامبراطورية البريطانية وقطع طريق الهند عليها. فجهز في أواخر
القرن الثامن عشر حملة كبيرة قوامها ٣٢٠٠٠ جندي يحملها أسطول
يتألف من ٢٦٠ سفينة . وقد أقبلت هذه السفن يوم ٩ من مايو سنة
١٧٩٨ من ميناء طولون قاصدة الى الشرق .

لم يكد يصل نبأ الأسطول الفرنسي مانحراً عباب البحر الأبيض
المتوسط الى جهة غير معلومة الى مسامع الاميرال نلسون قائد الاسطول
البريطاني حتى أخذ يجوب بأسطوله هذا البحر لكي يعلم وجهة سيره
ويفسد عليه خططه ، ولكنه لم يلتق به . ولعله فطن الى أنه يقصد
الاسكندرية فتوجه إليها وأرسل بعضاً من رجاله اجتمعوا بالسيد محمد
كريم ، حاكم المدينة ، وباعيانها وحدثوهم عن الحملة الفرنسية وقالوا
أنها قد تقصد الى الاسكندرية . ولما كان استعداد المدينة لا يكفي لردّها
فقد تطوع الاسطول البريطاني للقيام بهذا العمل دون أى مقابل سوى

مده بالماء والزاد وأعرب رجاله عن استعدادهم لدفع ثمن ذلك. ولكن أعيان المدينة وحاكمها أبوا إعطائهم ذلك واضطر الاسطول البريطاني الى الرحيل عن الاسكندرية الى أسيا الصغرى حيث يجد ما يحتاج إليه .

وبعد ثلاثة أيام من رحيل الاسطول البريطاني ، أى فى اليوم الاول من شهر يوليو سنة ١٧٩٨ وصلت العمارة البحرية الفرنسية الى مياه الاسكندرية عند مطلع الفجر . ولما وضع النهار أرسل نابوليون يطلب القنصل الفرنسى فرفض محمد كريم ثم عاد فأذن. واطلع القنصل نابوليون على حالة المدينة .

وكان الضعف قد أصاب الاسكندرية الى أبعد حد وأصبحت مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن عشرة الاف نسمة تقريبا ، وكانت منازلها متجمعة فى منطقة الانفوشى أى بين المينائين، الشرقى والغربى، ولم تكن محصنة ، وليس فيها جيش للدفاع عنها ، وكان فى مينائها ثلاث سفن حربية بقيادة القبودان (أمير البحر) أدريس بك . وعندما فاجأ نابوليون الاسكندرية باسطرله طلب من أدريس بك أن يرفع العلم الفرنسى على سفنه بدلا من العلم العثمانى فابى ذلك وطلب الاقلاع من الميناء فصرح له نابوليون بذلك ورحل القبودان بسفنه الثلاث الى اسطنبول ليروى للباب العالى ما شاهده .

ولما علم نابليون من القنصل بزيارة نلسون واسطوله للاسكندرية واقلاعه منها منذ ثلاثة أيام داخله الوجع وأمر فى الحال أن تتحول السفن الى العجمى وأن تبدأ النزول الى البر . وقد تم ذلك كله ليلا فلم تكد تأزف الساعة الثانية من صباح يوم ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ حتى

كان الفرنسيون وقد وضعوا أقدامهم على البر في تلك المنطقة وبدأوا الزحف الى الاسكندرية .

وجاء بعض البدو الضاربين في تلك الناحية الى الاسكندرية لينقلوا الخبر الى السيد محمد كريم ، حاكم المدينة ، فهب في الحال الى المقاومة وكان منذ ظهور السفن الفرنسية ، قد أخذ في ترميم الحصون والقلاع وجعلها بما استطاع العثور عليه من ذخيرة وعتاد . واندفع الاسكندريون للدفاع عن مدينتهم فتمرقوا في الطوابي والحصون واستنجد الحاكم بفرسان البدو في الصحراء الغربية والبحيرة لمناوشة العدو وصد هجومه .

وسار السيد محمد كريم على رأس ما عنده من القوات من الانكشارية وانضم إليهم فرسان من قبيلة الهنادى ، وتصدت هذه القوة لطلائع الجيش الفرنسى فهاجمتها وتغلبت عليها وقتلت ضابطها ثم أخذ فرسان قبيلة الهنادى يناوشون المقدمة ويقطعون حبل مواصلاتها مع بقية الجيش ويقرر المؤرخون الفرنسيون أنه لو كان عدد هؤلاء الفرسان يقارب الخمسمائة فارس لا لحقوا ضرراً كبيراً بالجيش الفرنسى وربما تغير مجرى التاريخ .

وعندما اقترب نابليون من المدينة صعد الى أعلى عمود السوارى الساعة الثامنة صباحاً ليلقى نظرة شاملة على موقعها واعداد الحملة عليها .

وقد استنسل الاسكندريون فى الدفاع عن مدينتهم بما لديهم من أسلحة وعطارد بدائية وأخذوا يطلقون الرصاص من بنادقهم القديمة ، وكان نابليون بنفسه يذهب ضحية الرصاص الذى كان يتطارر من جوله .

ولكن محمد كريم رأى أن هذا الاستبسال جهذ ضائع وهدر للدماء أمام قوات كبيرة كاملة العدة والعدد . فأمر بالكف عن القتال عند الظهر وامتنع هو ومن حوله من القسوات فى قاعة فرعون ، يدبر خطة المقاومة .

فاستدعاه نابوليون إليه ، واستقبله فى مجلس من الوجوه والاحيان واظهر اعجابه ببسالته . وأعاد اليه سلاحه .

ولا بدسنى الإشارة الى أن هذا البطل السكندرى الكبير لم يستكن الى مظاهر التقدير هذه ، وظل يثير القلاقل فى وجه الفرنسيين حتى أمر نابوليون باعدامه فراح شهيد الوطنية والاخلاص لبلاده .



ولكن الاسكندرية استطاعت أن تنتقم من الفرنسيين ، وهى تشاهد جيشهم الذى جاءها قوى الشكيمة وفير الاقدام ، ضعيفاً متخاذلاً مقطع الاوصال بفضل الضربات العديدة التى كالحا له الشعب المصرى ، والثورات العديدة التى قام بها ، والوقائع التى نخسرها مع القوات العثمانية والبريطانية التى جاءت مصر لطرد الفرنسيين منها - وبعض هذه المعارك جرت عند مشارف الاسكندرية - وقد شهدت الاسكندرية ذلك الجيش وقوامه عشرة الاف جندى بقيادة الجنرال عبد الله مينو محاصراً فيها لا يبدى حراكاً بعد أن قطع الانجليز الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط . ثم قطعوا المياه عن المدينة نفسها فلم يبق لديها سوى مياه الصهاريج .

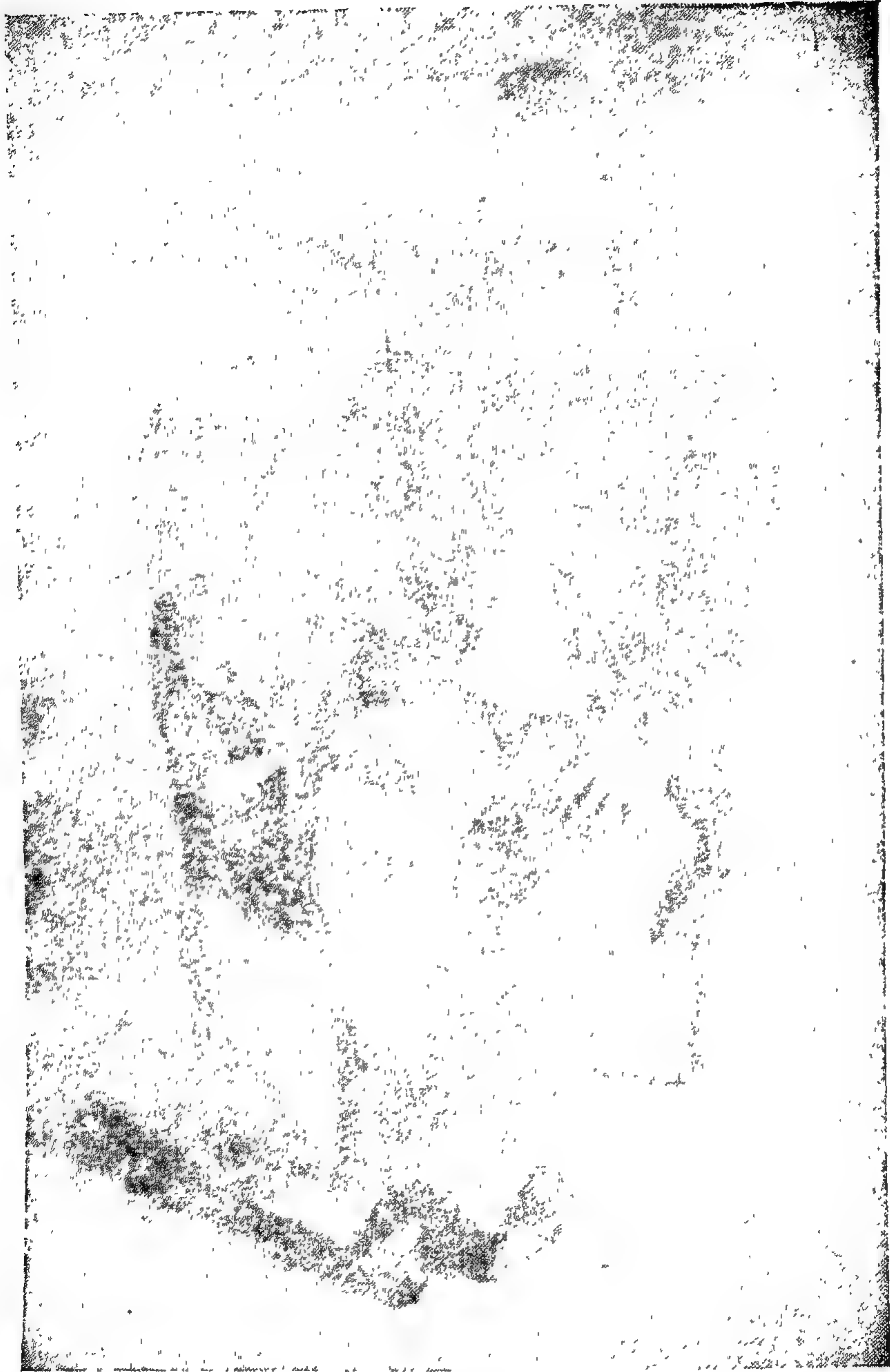
وأخير اضطر « مينو » الى المفاوضة ، وعقد في ٢ نوفمبر سنة ١٨٠١ معاهدة لانسحاب البقية الباقية من الجيش الفرنسى عن مصر . ولم يكد ينتهى ذلك الشهر حتى كانت مصر قد تطهرت من أولئك الأعداء الغازين ، وكانت الاسكندرية تذكر جهادها عندما قاومت هذا الجيش وهو فى عنفوان قوته وتحمد الله على أن نداء دماء أبنائها البررة التى سفكت يومئذ قد استجيب ، وأن جهادهم قد أثر ، وأن أرض الوطن قد أنقذت من براثن الاستعمار

البَابُ الْعَاشِرُ

معركة الاسكندرية



أحمد عرابي بطل ثورة ١٨٨٢



طلبة عصمت قومندان منطقة الاسكندرية

معركة الاسكندرية

١١ يوليو سنة ١٨٨٢

« حرب غادرة غير عادلة ولا متعادلة »

كان العدوان البريطاني الغادر على مصر آخر محاولة قامت بها بريطانيا في القرن التاسع عشر لتنفيذ خططها الاستعمارية وبلوغ أهدافها التوسعية وبسط نفوذها على مصر وتأمين طريق قناة السويس وكانت هذه أغراضها حين اشتركت مع الدولة العثمانية في طرد الفرنسيين من مصر (١٨٠١) ، وحين بعثت حملة « فريزر » (١٨٠٧) لتأييد محمد الألفي ضد محمد علي ، وقد اضطرت في هاتين المرتين الى الانسحاب من مصر تحت ضغط الشعب المصري من ناحية ، وقد لقنها في الحملة الثانية - وخاصة برشيد - درساً بليغاً ، وكذلك لأنها رأت أن الظروف الدولية غير ملائمة للقيام بعمل واسع النطاق ، ثم أخذت تخلق الاسباب مرة تلو المرة لبلوغ تلك الاهداف التي لم تكن تخفى على أحد ، وهذا القيصر نقولا الأول امبرطور روسيا يصرح للمسيو « بارنت » سفير فرنسا ببطرسبرج في فبراير سنة ١٨٣٩ ، أي عندما تأزم موقف مصر واضطر محمد علي الى الانسحاب الى داخل الحدود المصرية ، بأن الانجليز يصوبون انظارهم الى مصر ، وأن تلك البلاد ضرورية لهم

لتأمين مواصلاتهم مع الهند وأنهم يرغبون في استثمارها بشتى الوسائل ، بعد أن
وطدوا أقدامهم فى البحر الاحمر والخليج الفارسى ؟

وكانت الدول الأوروبية قد تعودت التدخل فى شئون مصر لتدعيم
نفوذها فيها والفوز بأقصى ما يمكنها أن تفوز به من مغنم وامتيازات،
رلمعت « الاحتكارات المالية الدولية » كما قال السيد الرئيس جمال
عبد الناصر فى « الميثاق » ، دوراً خطيراً فى مصر و « استنزفت فيها
كل امكانيات الثروة الوطنية لصالح القوى الاجنبية ولمصلحة عدد من
المغامرين الاجانب الذين تمكنوا من السيطرة على أمراء أسرة محمد على،
وساعدتهم على ذلك فداحة النكسة التى أصيبت بها حركة اليقظة المصرية ،
تلك اليقظة التى تمثلت أيامئذ بثورة عرابى ، وكانت هذه الثورة « قمة
رد الفعل الثورى ضد النكسة » كما كان « الاحتلال البريطانى العسكرى
لمصر سنة ١٨٨٢ ضمانا لمصالح الاحتكارات المالية الاجنبية وتأريدا لمصلحة
الخديو ضد الشعب : : : »

وهذا البيان الذى جاء فى « الميثاق » التاريخى العظيم الذى ألقاه
السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى « مؤتمر القوى الشعبية » مساء يوم
الاثنين ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ يغنى عن تفصيل الحوادث التى أدت الى
تلك الانتفاضة الشعبية العارمة — ثورة عرابى — والاحداث الجسام التى
تلتها والتى تذرعت بها بريطانيا للاحتلال ، مثل تخاذل الخديو توفيق

أمام مطالب بريطانيا ، وانحيازه اليها ، وضعف البعثة التي أرسلها الباب العالي الى مصر لمعالجة الموقف، وكثرة تبديل الوزارات المصرية، وضعف وزارة اسماعيل راغب دون مواجهة العاصفة ، ووصول الاسطولين البريطانى والفرنسى الى الاسكندرية ، والمؤامرات والمناورات التي دبرها الجواسيس والعملاء البريطانيون، وفي طليعتها مذبة الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

وهكذا نجد الموقف يتأزم يوماً بعد يوم ، والمنساورات البريطانية سائرة في طريقها . فيزعم اميرال الاسطول البريطانى الراسى بالاسكندرية مع الاسطول الفرنسى أن المصريين ينشئون بطارية تجاه احدى بوارجه ويطلب من حكومته إرسال مزيد من السفن الحربية فتلبى طلبه ثم تسعى لعقد مؤتمر دولي في اسطنبول لمعالجة شئون مصر فيجتمع هذا المؤتمر الذي أبقى الباب العالي الاشتراك فيه ، بالسفارة الايطالية يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٨٢ ويقرر أن لا تسعى أية دولة الى خلق مركز خاص لها في مصر وأن تمتنع عن أى تدخل مساح أو غير مسلح بمفردها ولكن بريطانيا طلبت أن يضاف الى القرار عبارة « الا في حالة قهرية » ثم راجت تخلق هذه الحالة القهرية لتبرر تدخلها الذي اعترفته منذ عهد بعيد، بل أنه قبل أن يبيت المؤتمر بشأن الحلة القهرية كانت بريطانيا قد خلقت أسبابها .

وتلخص هذه الأسباب في أن عرابي معزم سد بوغاز الاسكندرية

لحصن البوارج الانجليزية التي كانت راسية في الميناء ، وأن استعدادات
حربية تجرى في طوابى الاسكندرية حيث يركب المصريون بطاريات
جديدة ويقومون بترميمات لتقوية الطوابى .

وبدئى أنه لا صحة لهذه المزاعم وأنها أسباب اختناقها الأميرال
« سير بوشان سيمور » قائد الأسطول البريطانى ، أو أوحى اليه
حكومته بها لتبدير ذلك الهجوم الغاشم الذى قامت به على مصر وذلك
« الحرب الجائرة غير العادلة ولا المتعادلة » كما وصف نخليل مطران
حرب البوير .

وعندما أحكم وضع الخطة كتب سيمور الى طلبه عصمت ، قومندان
موقع الاسكندرية ، بلاغا يطلب فيه منه الكف عن أعمال التحصين الجارية
فى الطوابى .

وقد أجابه طلبه فى اليوم ذاته نافياً أنه زيد مدفع واحد على ما فى
تلك الحصون .

والحق أن طوابى الاسكندرية كانت لا تزال على الحالة التى تركها
عليها « جاليس » حين تولى اعدادها لمواجهة الهجوم الذى كان يخشى
أن تقوم به بعض الدول الأوربية على مصر حسين تأزمت الحالة بينها
وبين محمد على سنة ١٨٣٨ وما بعدها : ولم يجر فيها من أعمال الترميم

سوى ما قام به الخديو واسماعيل حين جلب لبعضها مدافع ضخمة من طراز
أرمسترونج بلغ مجموعها ٤٩ مدفعاً .

فلم يقتنع الاميرال سيمور بجواب طلبه عصمت وأرسل فى ٦ يوليو
انذاراً آخر يقول أنه جرى بالامس تركيب مدفعين جديدين أو أكثر
فى خطوط الدفاع القائمة على البحر ، فرد عليه طلبه فى اليوم نفسه
بالنفى ، وتظاهر بعدم الاقتناع وطلب فى ٩ من يوليو بأن
تسلم إليه الحصون ثم أرسل انذاره النهائى فى ١٠ يوليو وفيه يكرر
طلب تسليم الطوابى الموجودة فى شبه جزيرة رأس التين ، وهى طوابى
صالح وقايتباى والسلسلة قبل فجر الغد ١١ يوليو لتجريدها من السلاح
والا ضرب الحصون بقذائف الأسطول .

وعلى أثر تلقى هذا الانذار النهائى عقدت الحكومة المصرية أكثر
من اجتماع للتشاور وأوفدت أحد الوزراء مع طلبه عصمت الى الاميرال
« سيمور » واستعانت بقناصل الدول فلم يفد هذا جميعه . وانتقل
الخديو توفيق عملاً بإشارة نائب القنصل البريطانى الى سراى الرمل فى
المحطة المعروفة بهذا الاسم ، وهو اليوم أحد حصون الدولة ، فى أصيل
يوم ١٠ يوليو ، وباتت الاسكندرية تنتظر المصير الذى اعد له
العدوان الظالم والطمع الغاشم .

وقد غادرت السفن التجارية ميناء الاسكندرية عند ارسال الانذار

البريطاني ، وقيدت السفن المصرية مثل « المحروسة » و « محمد علي » الى الترسانة ،

وأما الاسطول الفرنسي الذي كان مرابطاً في الميناء فتمسك غادرها ليلاً ولم يترك سوى مدفعيتين « بيسون » و « ليرونديل » بعد أن عين لهما مكاناً منعزلاً لا تصل إليه المدافع البريطانية

وكانت انجلترا قد طابت من فرنسا أن تشترك معها في ضرب الاسكندرية فأبت وأغضت عينها عن الاعتداء البريطاني لانها كانت ترقب صداقتها ومساعدتها لها ضد المانيا ، غرمتها أيامئذ .

وكانت مدينة الاسكندرية قد نخلت تقريباً من سكانها ولم يبق فيها غير بعض الوطنيين والاوربيين من الذين لم يصدقوا أن بريطانيا ستقدم على ضرب المدينة ، أو من الذين حالت أعمالهم ومناصبهم دون ذلك أما الباقون من السكان فتمسك هربوا أما الى الداخل أو ركبوا السفن مهاجرين .



كان عدد طوابي الاسكندرية وقتئذ خمس عشرة طابية، وهي بالترتيب ابتداء من الجنرب كالآتي :

١ — طابية العجمي الكائنة بجزيرة العجمي و يسميها الافرنج

« مارابوت » وهو تحريف لكلمة « المزابط » وتسمى كذلك طابية العجمى البحرية تمييزاً لها :

٢ — طابية العجمة القبلية ، وتعرف بالطابية العيانة لأنها ليست ذات أهمية حربية :

٣ — طابية المكس

٤ — طابية القمرية

٥ — طابية أم قبية

٦ — طابية صالح

٧ — طابية باب العرب

٨ — طابية الفنار

٩ — طابية رأس التين

١٠ — طابية الأطى، وهى كلمة تركية تنطق أضه، ومعناها الجزيرة

والعامة تسميها طابية القضا

١١ — طابية الهلالية

١٢ — طابية قايتباى

١٣ — طابية السلسلة

١٤ — طابية كوم الدكة

١٥ — طابية كوم الناضورة :

والطابتان الاخيرتان تقعان داخل المدينة ولم يقصدهما الانذار
البريطاني ولم يعتمد الاسطول ضربهما .

وكانت مدفعية السواحل مكونة من ١٧٦٢ مقاتلا تعززها كتيبتان
من الفرسان ، وحامية الاسكندرية مكونة من أربعة لواءات مشاة
مجموعها ١٢ ألف جندي و ٧٠٠ من جنود المدفعية .

وفي اليوم السابق لنشوب القتال تولى أحمد عرابي القيادة العامة للدفاع
عن الاسكندرية ، واتخذ مقر قيادته في ديوان البحرية (الترسانة) يعاونه
المهندس محمود فهمي وزير الاشغال وطلبه عصمت قائد حامية الاسكندرية
ومحمد كامل وكيل وزارة الشؤون البحرية .

وعندما بدأت المعركة قصد عرابي الى طابية كوم الناضوره ليشرف
عليها ويتابعها منها .



كان الاسطول البريطاني يتألف من :

ثماني مدرعات كبيرة هي « الكسندرا » و « انفلكسيبل »
و « سلطان » و « سوبرب » و « عميرير » و « انفنسيبل » و « مونارك »
و « بنيلوب » .

وخمس مدفيعات

وسفينة طوربيد واحدة

وسفينة كشافة واحدة

وكانت راية الاميرال معقودة على البارجة « انفسيبيل » ، وكان
بجانبه « هيلكون » ينقل أوامره الى البوارج الاخرى .



في الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ كانت
سفن الاسطول البريطانى قد أخذت مواقعها للقتال . فتقدمت البوارج
« اليكسندرا » و « سلطان » و « سويبر » و « وانفالكسيل »
نحو طابية رأس التين حتى بلغت مسافة ١٨٠٠ متر تقريبا منها وأخذت
تتمدقها بالقنابل ، ثم تحولت نحو طابية قايتباى وصوبت نيران مدافعها
اليها . وتقدمت بعد ذلك البارجة « تيميرير » لتأييد البوارج الاربع في
هجومها ، في حين قامت بوارج أخرى بمهاجمة طابية المكس .

وهكذا أخذت السفن الحربية تقذف قنابلها على شواطئ الاسكندرية
وعند الطلقة الخامسة ردت قلاع الشاطئ على الأسطول وعندئذ تLFحت
البوارج البريطانية بالدخان ، ولم يعد يسمع سوى « نباح تلك الكلاب
المولاذية التى كانت تعوى فوق صفحات الماء » .

وكان من شهود الموقعة « سكوتيدس » المالحق بالمفوضية اليونانية
وقد روى مشاهداته فى كتابه « مصر الحديثة وعرابى » فاستهل الحديث
عن المعركة بالشناء على شجاعة رجال المدفعية المصرية والعطف عليهم
لأنهم لم يكونوا يملكون الدفاع عن أنفسهم كما يجب ، فلم يكن لأكثر المحصون
متاريس وحواجز واقية وكانت المدافع مقبلة فى العراء وعرضة للمهاجمين .

وذكر أن البوارج البريطانية كانت تطلق نيرانها على الحصون والطواحي فتزد عليها حصون الاسكندرية ولكن قذائفها كانت تقع في البحر فتتصاعد المياه في الجو « في شكل نوفرة عجيبة » .

الى أن قال : وبعد مضي ساعة من الزمن أخذت أصوات طلقات المدافع تخف وتبددت غيوم الدخان المتبادلة في الأفق . فشاهدنا البوارج البريطانية تشرق تحت أشعة الشمس وحصون الشواطىء أخذت بالانهيار فكان منظر مؤلماً وشيئاً . هذه « انفلاكسيديل » التي تعد من أعظم البوارج البريطانية قد غاصت الى نصفها في الماء بين بارجتين أخريين، وكأنها غول ماء يطلق النار على حصن رأس التين . وكان من المؤلم المصدع أن نسمع في كل دقيقتين قصف المدافع الضخمة كأنها الصواعق تنقذ على شواطىء الاسكندرية ونخصوصاً عندما كانت البوارج الثلاث تقذف في وقت واحد مدافعها على حصن رأس التين .

وعند الساعة الثامنة انفجر مستودع ذخائر « مرسى القنطرة » التي كانت في مدفعية المكس فأحدث دويّاً عظيماً .

وعند الساعة التاسعة اشتدت المعركة بين طابعية قايتباي والبوارج الثلاث التي هاجمتها . وقد قاوم المصريون ببسالة تفوق حد الوصف . وكانوا يقذفون قنابل مدافعهم بدقة وإحكام . وقد أصابت إحدى القنابل التي كانت تطلقها مدافع الحصن البارجة « الكسندرا » فأطارت غرفة الربان وقتلت ضابطاً وعشرة من البحارة .

وعند الساعة الحادية عشرة أصيب مستودع البارود في حصن قايتباى فكف عن المقاومة .

وأخذوا إطلاق المدافع يقل ساعة بعد ساعة حتى توقف تماماً عند الساعة السادسة مساء

وقد كتب الاسكندريون رجالا ونساء في ذلك اليوم صفحات خالدة من البطولة في الدفاع عن مدينتهم : فقد وقفوا وراء جنود المدفعية في الطوابى معرضين أنفسهم للقنابل التي كانت تنساقط حولهم ليساعدوا أولئك الجنود على نقل الذخيرة ويعملوا على تزويدهم بما يحتاجون اليه من ماء ويغمدوا جروحهم وينقلوا امواتهم .

ومن الأمثلة النادرة على البسالة الأعمال التي قام بها القائد المصرى لحصن الاطى الذى وقف في الخلاء يدير المعركة بشجاعة حتى أصابته قذيفة أطارته اشلاء متناثرة فذهب مجهول الشخصية لم يحفل التاريخ بذكر اسمه والتنويه به . أنه حقاً « الجندى المجهول » .



باتت الاسكندرية في تلك الليلة المشتومة في ظلام دامس ، لانور سوى بريق النجوم التي كانت تضطرب لمأساة المدينة ، وغير الأنوار الكشافة التي كانت البوارج البريطانية ترسلها لتؤكد من أن ضحاياها لا يزالون حيث هم ، وأنها فازت في عدوانها الغادر على مدينة آمنة مطمئنة . وكان « سيمور » لم يرو عطشه في ذلك اليوم الأغبر من الدماء .

والدمار فلم يكبد يصبح اليوم التالى حتى عادت بوارجه الى اطلاق مدافعها ولكنها لم تثبت أن توقفت حين لم تجد من يرد عليها ، وحين رفع العلم الأبيض على وزارة البحرية الساعة الحادية عشرة صباحاً .

وكانت قذائف الأسطول البريطانى قد تعدت الحصون الى المدينة بالرغم من تطمين قائد الاسطول البريطانى قناصل الدول بالاسكندرية مؤكداً لهم أنه سيوجه قذائفه الى الفلاح دون غيرها وأنه لا خوف على أحد من سكان المدينة .

وقد ذكر الصحفيون الذين شهدوا المعركة أن القذائف أصابت المساكن الأوروبية والمصرية نخب عشواء . وهذا مراسل « الطان » يكتب الى صحيفته الباريسية أن قذائف السفن أصابت مساكن الاوربيين التى كانت بعيدة عن خط القتال وسقطت احداها فى المستشفى الاوربى وكان يسمى أيضاً المستشفى الفرنسى ، وهو اليوم تابع للجيش . كما ذكرت صحيفة « الفار دالكسندرى » ان قذيفتين سقطتا فى حديقة دير الفرنسيسكان ، وقذيفة بساحة مدرسة أخوة المدارس المسيحية (الفرير) واثنين بالقرب من دير الايتام .

وزاد فى بؤس المدينة أن اندلعت النيران ، فاستبد باهلها الخوف والهلع وهجروها ، وظالت النيران فيها الى ٢٥ يوليو .

وقد بلغ عدد الضحايا من المصريين فى غضون ذينك اليومين الفى قتيل بخلاف الجرحى أما خسائر البريطانيين فلم تتجاوز حسب ماورد فى

احصائهم خمسة من القتلى و ١٩ من الجرحى : وأصيب سبعم بوارج
باضرار .



تلك كانت واقعة الاسكندرية ، مأساة بغى وعدوان ، وتجربة
للقوة على مدينة لا تملك من وسائل الدفاع ما يمكنها من دفع الهجوم
ورد الغير . ولا فخر في نصر لا مخاطرة فيه من جانب المنتصر .

والاسكندرية لم تستكن لهذا الدمار . فقد عاد الاسكندريون الى
مدينتهم بعد قليل ، ولم تمنح خمس سنين على ضربها بقنابل الاسطول
البريطاني حتى استعادت جمالها ، وقامت العمارات الجديدة في مختلف
أنحاءها وسارت في طريقها من التقدم يوما بعد يوم مستهدفة العمران
ومستكملة الرواق والبهاء حتى أصبحت عروس البحر الأبيض المتوسط .

الباب الحادى عشر

معركة راس التين

معركة رأس التين

وطرد فاروق

ان مأساة الاحتلال البريطاني لم تتم فصولها بنزول الجيش الى الاسكندرية بعد ضربها بمدافع الأسطول ، وبعد أن فاز الجيش الانجليزى فى معركة التل الكبير ، ونفى عرابى وشرذ زملاؤه من زعماء الثورة، واستقرت دعائم العرش الذى يجلس عاياه الأمراء من أسرة محمد على الى حين ، فالستار لم يكد يسدل على هذا الفصل الأول حتى ارتفع عن الفصل الثانى الذى ترددت فيه صيحات الانتفاضة وأعمال الثورة ، وجهاد الشعب . وهكذا لم تكد تخفت « أصداء المدافع التى ضربت الأسكندرية وأضدء القتال الباسل الذى طعن من الخلف فى التل الكبير حتى انطلقت أصوات جديدة تعبر عن ارادة الحياة التى لا تموت لهذا الشعب الباسل ، وعن حركة اليقظة التى لم تقهرها المصائب والمنصاعب» كما قال السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى ميثاق العمل الوطنى ، وقد قال أيضا أن قوة الاحتلال البريطانى العسكرية ومؤامرات المصالح الاحتكارية والاستعمارية والاقطاع الذى اقامته أسرة محمد على باحتكارها للأرض أو اقتسام جزء منها بين أصدقائها أو أصدقاء المستغلين الأجانب، ذلك كله لم يستطع أن يطفىء شعلة الثورة على الأرض المصرية .

» ان وادى النيل لم تنقطع فيه أصوات النداءات الثورية فى مواجهة

هذا الارهاب المحكم الذى تسند، قوة الإحتلال الأجنبى والمصالح الدولية الإستعمارية .

أجل ، فقد بدأت المقاومة منذ بدء الإحتلال . وكانت الإسكندرية ركنا مكينا من أركانها ، وعاملا قوياً فى إيقاظ الوعى القومى ، ومثلاً عالياً للتضحية فى سبيل انقاذ البلاد من الأغلال التى قيدها بها الإستعمار والرأسمالية والإحتكار ، والإنتفاض ضد حكم الارهاب والطغيان ، والوصول الى الجلاء ، واستكمال أسباب الإستقلال . وقد كانت الإسكندرية المدينة التى اختارها الزعيم مصطفى كامل لإلقاء أروع خطبه العامرة بالحماس والوطنية . وطالما رددت جدران مسرح « زيزينيا » أصداء صوته الجمهورى وبلاغته المشهودة التى كانت تعبر عن روحه المتوثبة واندفاعه فى إيقاظ الوعى القومى ، وإذكاء روح الوطنية ، وذلك بين تصفيق الجماهير الحاشدة لسماع خطبه وهتافات المدوية :

واشتركت الاسكندرية فى ثورة ١٩١٩ ، وكافحت فى سبيل المطالبة بالجلاء وسالت دماء أبنائها الذكية ، بل أنها ناضت وحدها غمار معركة قد تبدو صغيرة فى نفسها ولكنها كانت ذات أثر كبير لأنها كانت فى طليعة الاسباب التى أدت الى جلاء القوات البريطانية عن المدن الكبيرة وخاصة القاهرة والاسكندرية :

كان « كركول الانجليز » قذى فى عيون الإسكندريين الذين وطالما ركزوا هجومهم عليه فى ثورة ١٩١٩ وما بعدها . ولما أزيل سنة ١٩٣٧ استعاض الجيش

البريطاني عنه بمخفر أقيم في ميدان سعد زغلول ، حيث النصب القائم اليوم بتخليداً لذكرى الشهداء الذين سقطوا يوم اقتحمه المتظاهرون يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٦ ؛ فقد ثار الاسكندريون في ذلك اليوم المشهود وهاجموه في وجه نيران شديدة مركزة من الاسلحة السريعة الطلقات ، وكانت مشاهد ملتبهة غمرت المنطقة والشوارع المؤدية اليها وسقط من المواطنين عشرات من القتلى وأضعافهم من الجرحى ؛ ولكنهم ظفروا على كل حال بإزالة « نقطة البوليس الإنجليزى الحربى » قوة واقتداراً . فكان أول جلاء فعلى للأحتلال البريطانى بأشـره شعب الإسكندرية بنفسه وحققه بدمائه وشهداءه .



يجب أن نشير هنا الى تلك الحملات الجوية التى امتحنت بها الاسكندرية أبان الحرب العالمية الثانية ، وكانت أولها ليلة ٢٨ من يوليو سنة ١٩٤٠ . وبلغت أشدها ليلة ٨ من يونيو سنة ١٩٤٢ ؛

وكانت المانيا ترى أن تضرب بريطانيا فى مصر وأن تقطع المواصلات بينها وبين مستعمراتها فى آسيا وأفريقيا عن طريق قناة السويس ؛ وكانت بريطانيا قد جعلت من الاسكندرية قاعدة بحرية قوية ؛ وقامت فيها استحکامات منيعة ؛ لذلك ظلت المانيا توالى هجماتها الجوية الليلية على الاسكندرية . فتقن مضاجع سكانها فينفرون الى المخابىء هرباً من تلك القنابل التى كانت تحمل الموت والدمار ؛

وكان السخط عملاً قابوB الاسكندريين على الاستعمار الذى كان السبب فى هذه المحنة التى أبتلوا بها فى حين لا شأن لهم بالحرب القائمة ولا حيلة لهم فى دفع ذلك الويل .

وقد ظلت الهجمات الليلية تتوالى على الاسكندرية مادامت الدولتان
الفاشيتان المانيا وايطاليا مسيطرتين على القطاع الشرقى من البحر الابيض
المتوسط وما دامت الحرب دائرة فى الصحراء الغربية وقوات « روميل »
تواصل هجومها على مصر حتى وصلت المعركة الى مشارف الاسكندرية
ثم زالت الغمة بعد اندحار قوات « روميل » فى معركة العلمين وابتعاد القوات
الالمانية نهائياً عن مصر :

وقد نتج عن تلك الهجمات الجوية تدمير بعض ابنية الاسكندرية
وقتل عدد من سكانها الآمنين :

وتحملت الاسكندرية هذه المحنة التى ابتلاهاها الاستعمار بريادة جاش
وتمددت على عاداتها للهجمات الجوية ببسالة وشجاعة :



بمثل هذه الروح العالية ؛ وذلك الإندفاع الطبيعى لدى الإسكندريين
فى كل مايتعلق بشئون الوطن استقبل الشعب الثورة ، ورحبوا بها ،
واعتبروا أنفسهم مجندين لها منذ اللحظة الأولى . وما أن رأى الاسكندريون
الجيش يحيط بقصر رأس التين صبيحة يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢
حتى اندفعوا يحيطون به ، ويمتفون له ، ويبدون استعدادهم لتأييده
فى النضال الذى استعدله لإزالة حكم الطغيان عن مصر وطرد الملك
الغاشم من هذه البلاد الطيبة التى طالما عاش فيها هو وأسلافه جوراً وفساداً .

كان الضباط الاحرار برئاسة جمال عبد الناصر قد قرروا القيام
بالثورة ، وعينوا لها موعداً عند منتصف ليلة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ .
وقد ظل القرار سراً مطويّاً حتى نفذ بدقة واستولى الضباط على جميع
الشركات وانضمت اليهم جميع القوات . وأخذوا منذ صبيحة ذلك اليوم

يعلنون طلباتهم واحداً بعد الآخر منها استقالة الوزارة ، وكان يتولاها نجيب الهلالي ، وتأليف على ماهر وزارة جديدة ، وإبعاد ستة من حاشية فاروق ، وأخيراً تنازل فاروق عن العرش . .

وقد استعد الضباط الأحرار لهذا المطلب الأخير في حالة تمنع فاروق عن الإذعان له : فإرسلوا قوة من الجيش بمدافعها ودباباتها وأسلحتها وذخيرتها إلى الاسكندرية وكانت القوات البحرية والبرية المرابطة بالأسكندرية قد أنضمت إلى الثورة ، فجاءت الوحدة الجديدة التي أرسلت إلى الاسكندرية مدعمة للقوات الموجودة فيها . وقد قيل رسمياً يومئذ أنها أرسلت للمساعدة على حفظ النظام والأمن ولكنها كانت في الحقيقة للاستعداد لخلع فاروق . وتولى زكريا محي الدين قيادة التحركات الحربية بالأسكندرية .

كان فاروق يوم إعلان الثورة يقيم بقصر المنتزه . ولكنه رأى مساء يوم الاثنين ٢٤ يوليو أن ينتقل إلى قصر رأس التين ، ولعله ظن أن هذا القصر يمنع له من الأول ، وأنه يستطيع الهرب منه . ولكن هيهات بعد انضمام القوات المصرية بمختلف أسلحتها إلى الثورة .

ولم يكذب بزغ فجر يوم السبت ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ حتى كانت بعض قوات الجيش ومعها أسلحتها ودباباتها قد حاصرت قصر رأس التين ، وحتى قدم ضباط الثورة طلبهم بتنازل فاروق عن العرش .

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعي في كتابه « ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ » أنه عندما حاصرت قوات الثورة قصر رأس التين وغيره من القصور الملكية بالأسكندرية والناهرة فكر فاروق بالمقاومة ولكنه لم يلبث

أن أقلع عن رأيه بعد أن شاهد جموع الشعب المترصة وراء الجيش المحاصر
القصر تهتف له وتتحفز لتأييده :

وجرى أثناء حصار القصر أن خرجت رصاصة طائشة من مدفع كان مركباً
بأحد أبراج القصر فلم تر القوات المحاصرة بدا من اسكات هذا المدفع . وقد
أصيب ستة من جنود الحرس بجراح ولم يصب أحداً من رجال
الجيش بسوء .

ونخضع فاروق لمطالب الثورة واستسلم لها ، ووقع وثيقة التنازل عن
العرش ، ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى كان قد أقله يخت
« المحروسة » بعيداً عن شواطئ مصر ؛ كما كان قد أقل جده
اسماعيل من قبل .

وبذلك انجابت غيوم الاستبداد والطغيان عن سماء مصر ، وأشرقت
شمس الحرية والانطلاق . وزال بزوال الطغيان عهد الاستعمار وعملائه
ووكلائه ، وكان هذا الحدث العظيم نقطة تحول في تاريخ مصر .
فودع الشعب المصرى عهداً مليئاً بالذل والخنوع واستقبل عهداً كله
عزة وفخار :

وسارت مصر في هذا الطريق السوى بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر
لتحقق الآمال التي عقدتها على حكومة الثورة وتصل الى ما نصبو اليه
من خير وتقدم وعلاء :

وبعد . . .

كان الاقدمون يضعون اكليلًا من غار على رأس القائد المنتصر عند أوبته من ساحة القتال . وليست هذه الذكريات التي جلوناها ، والصفحات المخالدة التي بسطناها ؛ سوى ذلك الاكليل ، اكليل البطولة والفخر ، ترفه الى الاسكندرية الباسلة التي وقفت في وجه العدو في ساعة الخطر ، ويجب أن تقف اليوم الى جانب المنتصر في أعياد النورة .

لقد ساهمت الاسكندرية في الجهاد ضد الأجنبي المحتل ، وأدت قسطها من النضال ، وقدمت ضريبتها من الدم البريء المهذور ، حتى تم للبلاد ما كانت تصبو إليه على أيدي صفوة من أبنائها البواسل الأحرار ، فحق لهم الحمد والثناء ، كما حق للاسكندرية أن تتمجد في أعياد الثورة وما تفيضه على البلاد من بهجة وإشراق وبهاء .

مراجع الكتاب

كان حريا بنا أن نذكر مراجع الكتاب على ما جرى عليه الأدباء والباحثون عند معالجتهم الموضوعات التاريخية من مثال ما عرضنا له ولكن بعض فصول هذا الكتاب وضعت في أوقات متباعدة وتحت تأثيرات مختلفة متنوعة : وأغفل في الكثير منها ذكر المراجع ، وضاعت معالمها . فرأيت الإستغناء عنها اجمالا والإكتفاء بالقول بأنها لا تخرج عن كتب التاريخ العام وبعض كتب التاريخ الخاص من عربية وفرنسية وقد ذكرت بعضها في غضون الحديث ٥

فهرس الكتاب

صفحة	
٥	المقدمة
٩	١ - أول أسطول يزور الاسكندرية .
٢٣	٢ - معركة يوليوس قيصر :
٤١	٣ - الفتح العربى .
٥١	٤ - معركة ذات الصوارى .
٦٠	٥ - غزوة الربضين :
٨٠	٦ - الصليبيون يحاصرون الاسكندرية .
٨٥	٧ - حصار آخر .
٩١	٨ - غزوة الفبارصة :
١٠٥	٩ - نزول القوات الفرنسية فى الاسكندرية .
١١٣	١٠ - معركة الاسكندرية - ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ .
١٣٣	١١ - معركة رأس التين وطرده فاروق .
١٣٩	وبعد
١٤١	مراجع الكتاب

يَصْدَرُ قَرِيْبًا

الكتاب

ترجمة

أوباء وعاصرين

ومجموعة

قصص قصيرة

مكتبة الطبع والنشر :

الوكالة العامة للدراسات والبحوث

٧٢ شارع ابراهيم درواز. تليفون ٣٦٤١٢ بكنتية

طبع بمطابع نصر مصر بالاسكندرية